الباب الأول

السخرية فى الشعر العربى القديم

" المفهوم و التطور"

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مقدمات مهمة حول فن السخرية

مفهوم السخرية:

أولا: المدلول الوضعى للكلمة:

أطلقت مادة (سخر) – باعتبار وضعها اللغوى – على عدة معان ، وهي:

١ـ الاستهزاء:

جاء فى لسان العرب: سخر منه وبه سخرا ، وسخرا، وسخرا، وسخريا وسخريا وسخرية ، أي: هزئ به٠

ويروى بيت أعشى باهلة على وجهين :

إنـــى أتتنـــى لـــسان لا أســـر بهـــا من علو ، لاعجـــب منهاولاســـخر[١]

ويروى: ولا سخر، قال ذلك لما بلغة خبر مقتل أخيه المنتشر[٢] .

ومعنى: ولا سخر فى البيت: لا استهزاء٠

٢ـ القهـــــر:

وتطلق كلمة السخرية – أيضا – ويراد بها: القهر٠

يقول ابن منظور: والسخرة: ما تسخرت من دابة أو خادم بلا أجر ولا ثمن ٠ ويقال: سخرته بمعنى سخرته، أي: قهرته ٠ وتـــسخرت دابة لفلان، أى : ركبتها بلا أجر٠ ورجل سخرة : يـــسخر فى الأعمال، ويتسخره من قهره٠ وســـخره تسخيرا: كلفه عملا بلا أجرة أو كلفه مالا يريد وقهره، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر، فذلك مسخر[٣] .

١- البيت منن البسيط التام ٠

٢- لسان العرب، لابن منظور، ج٣٥٢/٤ ، "مادة: سخر" الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت- لبنان – ١٩٩٠م٠

٣- لسان العرب، ج٣٥٣/٤، ٣٥٤ ٠

obeikandl.com

٣- التذليل:

وتطلق كلمة السخرية – أيضا – ويراد بها : التذليل.

جاء فى لسان العرب: سخرته، أي: ذللته. وسفن سواخر: إذا أطاعت وطاب لها الريح . وأنشد ابن منظور: سواخر فى سواء اليم تحتفر [١]

وكل ما ذل وانقاد، أو تهيأ لك على ما تريد، فقد سخر لك. قال الله – تعالى-: "وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ .." [٢] أى : ذللهما.

والشمس والقمر مسخران،أي: يجريان مجاريهما، أي: سخرا جاريين عليهما[٣] .

٤- الضحك: ومن المعانى التى وضع لها لفظ السخرية – أيضا - : الضحك.

يقول صاحب اللسان: السخرة: الضحة . ورجل سخرة: يسخر من الناس. ورجل سخرة: يسخر منه الناس[٤] .

ومما سبق يتضح لنا: أن مادة السخرية تدور فى المعجم العربى حول عدة معان وهي: الاستهزاء ، والقهر، والتذليل، والضحك.

وهذه المعانى الوضعية لا تختلف مع المعنى العرفى للكلمة – الذى سيأتى بعد قليل- بل توافقه وتلائمه، فالاستهزاء ، والقهر، والتذليل، والضحك كلها معان يشتمل عليها المعنى العرفى للكلمة، وتظهر فيه بوضوح.

ثانيا: المدلول العرفى للكلمة:

حين نتحدث عن مفهوم السخرية الأدبية، يتراءى لنا أن النقاد والباحثين لم يتكلموا عنها بصورة مستقلة تماما، وإنما تكلموا عنها باعتبارها جزءا من ظاهرة عامة فى الطبيعة البشرية.

١- البسيط التام.
٢- سورة إبراهيم، من الآية: ٣٣ .
٣- لسان العرب، ج٤/٣٥٣، ٣٥٤ .
٤- لسان العرب، ج٤/ ٣٥٣ .

يقول أحد الباحثين: "الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا إن هى إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس فى اللهو ترويحا عن نفسها، وتبحث فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذى كثيرا ما يثقل كاهلها" [١].

وقد نظر النقاد إلى هذه الأنواع المجتمعة، ورأوا أنها تمثل ظاهرة واحدة وهى "الضحك"، معللين ذلك بأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع، كما أنه جزء أساسى من هدفها جميعا.

وقد أعطى الفلاسفة وعلماء النفس اهتماما كبيرا لدراسة ظاهرة الضحك وتحليلها، وربطها بالنواحى النفسية للإنسان، وقد ظهر من خلال ذلك أنها ظاهرة معقدة جدا، فـ"هناك أكثر من مائة نظرية حول الضحك، وكلها نظريات متداخلة يعتمد بعضها على بعضها الآخر بدرجة واضحة"[٢] .

ونظرا لكثرة النظريات والتداخل فيما بينها، يقول بعض الباحثين:

"ولو أننا حاولنا أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية لتبيين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من مواقف بشرية" [٣].

فالمواقف الإنسانية المضحكة كثيرة لا تحيط بها نظريات ، ولا يقننها قانون.

ومع هذا،فقد لحظ بعض النقاد والباحثين أن الضحك ناشئ فى الأصل عن الشعور بالانتصار فى معركة جسمية بدائية،وحاولوا تقسيم الضحك إلى نوعين:ضحك إيجابي، وهو الضحك الذى ينبعث عن غير غرض أو هدف الإضحاك،وهو ما يطلق عليه الفكاهة.

١- سيكولوجية الفكاهة والضحك ، د. زكريا إبراهيم /٨ ، دار مصر للطباعة .
٢- الفكاهة والضحك، د/شاكر عبد الحميد /٢٢ (سلسلة عالم المعرفة) مطابع السياسة الكويت يناير ٢٠٠٣م.
٣- سيكولوجية الفكاهة والضحك ، د. زكريا إبراهيم /٨٩ وما بعدها.

وضحك سلبي: وهو الضحك المتولد من الشعور بنقص الآخر، أو ضعفه بمعنى أن له هدفا وغرضا معينا ، وهو الاحتقار والازدراء والسخرية.

وكذلك يفعل الباحثون الذين يقسمون هذه الظاهرة باعتبار مصدرها الانفعالى فيرون أن نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذى أثارها.

ومن ذلك أن انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية والسخرية.

فالسخرية إذن نابعة من انفعال عدوانى بين خصمين، ولكن الخصم الأقوى والأقدر منهما هو الذى يستطيع أن يسخر من الآخر، وهذا أيضا تأييد لأن الضحك – عنوان السخرية – مظهر من مظاهر الانتصار والتفوق.

ولهذا كثرت اجتهادات النقاد والباحثين من عرب وأجانب حول تحديد مفهوم السخرية، ورغم كثرة هذه الأقوال والاجتهادات، فإن المحصلة النهائية لكل قول كانت مقاربة لغيره من الأقوال مهما كان اختلاف الأسلوب.

وإليك مفهوم السخرية فى اصطلاح النقاد العرب:

عرفها المازنى بأنها:"العبارة عما يثيره المضحك،أو غير اللائق من الشعور بالتسلي أو التقزز، على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزا، والكلام مفرغ فى قالب أدبي" [1].

ونلحظ أن هذا التعريف يحدد عناصر السخرية الأدبية فى أمور ثلاثة، وهي:

الأول: اشتمالها على الفكاهة والاستهزاء.

الثاني: أنها تصاغ فى عبارات أدبية مؤثرة.

الثالث:أن الغرض منها:التسلية، أو الانتقام فى صورة الاستهزاء.

- وعرفها بعض الباحثين بأنها: "فن إبراز الحقائق المتناقضة والأفكار السلبية فى صورة تغرى بمقاومتها، والرد عليها، وإيقاف مفعولها، من غير أن يلجأ إلى الهجوم المباشر،أو يبدو فى موقف يكون فيه هدفا للانتقام" [2].

١- حصاد الهشيم، إبراهيم المازنى /٣٠٢ ، طبعة الشعب.

٢- السخرية فى أدب المازني، د.حامد الهوال/٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

وبالنظر إلى هذا التعريف ، نجد أنه يكشف عن الدور المهم الذى تقوم به السخرية فى تعرية المتناقضات والسلبيات الموجودة فى المجتمع، بهدف العمل على مقاومتها وإيقاف انتشارها،كما أنه يشير إلى أنها أسلوب غير مباشر فى النقد.

- وعرفها بعض آخر بأنها: "العنصر الذى يحتوى على توليفة درامية من النقد والهجاء، والتلميح، واللماحية، والتهكم ، والدعابة ، وذلك بهدف التعريض بشخص ما، أو مبدأ ما، أو فكرة أو أى شئ، وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيه" [1] .

ونلحظ أن هذا التعريف، قد ركز على ذكر بعض وسائل السخرية ، كما أنه أشار إلى أن السخرية منها ما يتوجه إلى نقد الأشخاص ، ومنها ما يتوجه إلى نقد الأفكار السلبية، سواء منها ما كان فى الجانب السياسى أو الاجتماعى، وهذه هى أهم اتجاهاتها الموضوعية.

- وعرفها الدكتور نعمان طه بأنها: "النقد المضحك، أو التجريح الهازئ" [2].

وهذا يعنى أن السخرية مهما كانت مضحكة ، إلا أنها تخفى وراءها هدفا جادا وغاية إصلاحية نبيلة.

- ويعرفها آخرون بأنها: "شكل من أكثر أشكال الفكاهة أهمية ، وهدفها عموما مهاجمة الوضع الراهن فى الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير"[3].
- ويصفها الأستاذ الدكتور شوقى ضيف وصفا فيه شئ من التفصيل بقوله: "السخرية أرقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات ويستخدمها

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.
٢- السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجري/١٤، الطبعة الأولى، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٩٧٨م.
٣- الفكاهة والضحك ، د. شاكر عبد الحميد/٥٢ (سلسلة عالم المعرفة) مطابع السياسة، الكويت يناير سنة ٢٠٠٣م.

الساسة للنكاية بخصومهم، وهى حينئذ تكون لذعا خالصا، وقد تستخدم فى رقة، وحينئذ تكون تهكما" [١].

وإذا كان الدكتور ضيف يشير فى كلامه السابق إلى أن استخدام الرفق فى السخرية يجعلها من باب التهكم ، فإن كثيرا من النقاد والباحثين لا يتفقون معه على هذا الزعم؛ لأن المعروف أن التهكم إنما يصدر عن النفوس العنيفة التى لا ترحم حمق الغير أو جهله فتتهكم به.

- ويذكر بعض الباحثين تعريفا آخر للسخرية، فيقول: "هى طريقة فى الكلام يعبر بها الشخص عن عكس أو غير ما يقصده، كقول المتألم أو المظلوم: ماأسعدنى !" [٢].

وهذا التعريف وإن كان سهلا وموجزا، إلا أنه تعريف قاصر؛ ذلك لأنه قصر السخرية على أسلوب واحد من أساليبها، وهو السخرية عن طريق القلب و العكس، بينما أغفل بقية الأساليب ، مما جعل مجالها ضيقا ومحدودا .

وقد عرف بعض الكتاب والنقاد الأوربيين السخرية أيضا، وإليك ذلك:

- يقول أحدهم فى تعريفها: إنها طريقة من طرق التعبير، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، وهى صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء التى إن فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون حينئذ فى يده سلاحا مميتا" [٣].
- ويعرفها أرثر برجر بأنها "أحد أشكال المقاومة ، أو قوة خاصة للمقاومة" [٤]
- وعرفها بعضهم بأنها "طريقة فى التهكم المرير، والتندر أو الهجاء الذى يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا"[٥] .

١- الفكاهة فى مصر/١٣، سلسلة دار الهلال ، فبراير سنة ١٩٥٨م .
٢- النقد التطبيقى التحليلي، د. عدنان خالد عبد الله/٢٧، الطبعة الأولى، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م.
٣- السخرية فى الأدب العربى ، د. نعمان طه /١٣ .
٤- الفكاهة والضحك ، د. شاكر عبد الحميد /٥٢ .
٥- السخرية فى الأدب العربى ، د. نعمان طه/١٤ .

هذه المحاولات ، وإن كان سعى أصحابها مشكورا، إلا أننا لا يمكن من خلالها أن نصل إلى تعريف جامع مانع لفن السخرية؛ ذلك لأن السخرية عمل إنسانى محض ولا يستطيعها إلا الإنسان، والإنسان متغير، والألفاظ جامدةوالجامد لا يضبط المتغير.

لذا فقد "أصاب علم المنطق الحديث والباحثون فيه بقولهم: لا يمكن تعريف شئ من الأشياء على وجه الأرض تعريفا جامعا مانعا ؛ لأن الشئ الحى لا يمكن الإحاطة به وتصويره ببعض ألفاظ قاصرة، إذ هو حى متحرك، والألفاظ مهما تكن جامدة ساكنة" [1].

ولو أننا بالفعل وضعنا الشئ الحى فى قالب جامد ساكن، فإنه إما أن يموت ويفني، وإما أن يحطم هذا القالب الجامد، ويخرج منه مرتميا فى أحضان الحياة، ليبقىهو كذلك حيا وخالدا.

وأقرب تعريف إلى الاكتمال من كل التعريفات السابقة: هو التعريف الأول الذى أوردناه للمازنى ، وقد عللت ذلك من قبل.

أما بقية التعريفات، فقد وجدنا فيها خلطا وتداخلا بين وصف السخرية وإبراز أهميتها ، وذكر عناصرها، وأهدافها، واتجاهاتها، مما يجعلها – من وجهة نظرى – عاجزة عن تحديد مفهوم دقيق للسخرية.

والسخرية والهجاء والعلاقة بينهما:

جاء فى لسان العرب: أن الهجاء فى اللغة: الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح قال الليث: هو الوقيعة فى الأشعار.

وقد ذكر اللسان العربى لمادة "هجو" عدة معان لغوية: فالهجاء: القراءة وتقطيع اللفظة بحروفها، وهجو يومنا: اشتد حره، والهجاة : الضفدع، وهجى البيت هجيا : انكشف، وهجيت عين البعير: أي: غارت [2] .

فمادة الهجاء تدور إذن حول معانى البشاعة والقبح والشدة والنكال والكشف.

١- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١٤، ١٥ .
٢- لسان العرب، ج٣٥٣/١٥ "مادة هجو".

- لذا عرفه بعض الباحثين بأنه: تعداد للمعايب، وكشف لبشاعة الرذائل والنقائص فى الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية [1].
- والهجاء عند نقاد الأدب نوعان: هجاء شخصى ، وهو ما عرفته العربية ودرج عليه معظم الشعراء.

وهجاء اجتماعى ، ويراد به: ذلك اللون التهكمى الساخر منه، والذى يقصدإلى إبراز عيب فى المجتمع، وتصويره فى صورة بشعة؛رغبة فى الإصلاح والتقويم[2].

وعندما ننظر إلى علاقة السخرية بالهجاء ، نجد أن النقاد والباحثين قد اختلفوا فى تحديد هذه العلاقة على النحو التالي:

١ـ الترادف المشروط:

ذكر بعض الباحثين أن السخرية قد ترادف الهجاء ، وذلك إذا تحقق فيها شرطان.

أولهما: صدق المعنى، ومعناه: أن يذكر الشاعر تعليلا للسخرية ، بأن يذكر لها سببا يقتنع به السامع.

وثانيهما: صدق التصوير، ومعناه أن يكون حكم الشاعر على المسخور منه، صادقا ومقبولا لدى السامع، ومناسبا للسبب الذى دعاه إلى السخرية منه.

فإذا تحقق هذان الشرطان فى السخرية، كانت مرادفة للهجاء، مدرجة ضمنه ولكن تحقق الشرطين فى شعر السخرية أمر بعيد المنال؛لأن غالبية شعر السخرية غير معلل

أما عن كون الحكم صادقا، ومقبولا لدى السامع، فهذا أمر مستبعد أيضا؛ إذ كيف يكون الحكم مقبولا لدى السامع ، والغرض من السخرية إثارة الضحك؟ وإثارة الضحك

١- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمى/١٢، دار المسيرة – بيروت .
٢- انظر: الشعر الاجتماعى عند جماعة الديوان، د. رزق محمد داود /٨٤ (رسالة دكتوراه ١٩٨٦م).

لا تكون إلا بغريب الأحكام، وأشدها مبالغة، فإذا جاء الحكم على ما يتوقع لم تؤد السخرية غرضها [1] .

- ولعل ذلك هو ما دفع بعض النقاد إلى القول بالمغايرة بين السخرية والهجاء من حيث المنشأ والغرض، فالهجاء: صادر عن نفس واجدة غاضبة حاقدة بينما السخرية صادرة عن نفس ساخرة ناقدة ، مبرأة من الحقد والموجدة.

ثم إن الغرض من الهجاء: التجريح والتشهير، والانتقاص والعدوان، بينما الغرض من السخرية:التهذيب والتقويم والإصلاح.ويكثر فى الهجاء السب والإقذاع لكن السخرية لا سب فيها ولا إقذاع[2] .

٢ـ الامتزاج من ناحية والافتراق من ناحية أخرى:

ذهب بعض النقاد إلى القول بأن السخرية تمتزج بالهجاء من ناحية الوظيفة والغرض، فكلاهما غرضه واحد،أو يكاد،وهو الانتقام والتشفي، لكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التى يشتمل عليها كل منهما، أو بتعبير آخر: هما يفترقان فى طريقة الوصول إلى الغرض المطلوب ، فالهجاء طريقة مباشرة فى الهجوم على الخصم، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة فى الهجوم[3] .

٣ـ أن السخرية جزء من الهجاء وطور من أطواره:

يذهب أصحاب هذا الرأى : إلى أن السخرية مرحلة متطورة من مراحل الهجاء وقد ظهرت بشكل واضح فى العصر الإسلامى على يد الحطيئة، وحسان بن ثابت، وغيرهما وإن كانت لها جذور فى العصر الجاهلي، وقد نمت وترعرت عند شعراء النقائض، واشتد

١- راجع فى ذلك: أسلوب السخرية فى القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفنى/٣٩٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
شعر الهجاء بين الحطيئة وابن الرومي، للباحث/عادل نصورة التمساحي/٦٣ وما بعدها.
٢- انظر: الفكاهة فى الأدب ، د.أحمد الحوفي، ج٧٢/١، ملتزم الطبع والنشر:مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٦م.
٣- انظر: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١٠،الطبعة الأولى، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

عودها، واستوى على سوقه فى العصر العباسي، حتى أصبحت سمة غالبة على معظم شعر الهجاء[١]، ونحن نؤيد هذا الرأى لأنه أعدلها.

وهذا معناه ان السخرية فن قائم بذاته فى الهجاء ، يرتفع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع، الذى يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة.

وعلى ذلك، فالعلاقة بين السخرية والهجاء: علاقة العموم والخصوص فالهجاء مصطلح عام، والسخرية مصطلح خاص ينضوى تحت لوائه، وقد ظهر نتيجة ارتقاء الأذواق، وتغير الطباع؛ بسبب الحضارة.

ومع أن الأقوال السابقة قد اجتمعت كلمتها على أن الهجاء يحمل بين طياته الحقد والكراهية والبغض، وأنه يتسم بالغلظة والخشونة والجفاف، فإن الهجاء قد يكون هو السلاح الوحيد فى بعض الأحيان ذلك أن الفساد والتعفن حين يصل إلى قمته، فإن التورية، والتلميح، والغمز، واللمز تصبح أسلحة غير فعالة بالمرة.

- ويشير بعض النقاد إلى أن إصابة الهدف بأقل قدر ممكن من التجريح من الشروط الأساسية التى يجب أن تتوفر فى فن السخرية، أما الهجاء الفاحش، والإهانة والسب الصريح فلا يدخل فى فن السخرية، وإنما هو شئ آخر[٢].

والظاهر: أن هناك نوعين من الهجاء: نوعا أنشئ لأجل الهجاء والسب والإقذاع فقط، وهذا النوع ليس داخلا فى موضوعنا.

ونوعا آخر قصد به السخرية، فهو هجاء السخرية، والشاعر لا يصدر فيه غالبا عن حقد أو سخط، وإنما يعمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف[٣].

١- راجع: الهجاء فى الأدب الأندلسى ، د. فوزى سعد عيسى/١٦، ١٧، دار المعارف.
٢- راجع:الأدب الساخر د. نبيل راغب/٢١(سلسلة مكتبة الأسرة) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.
٣- راجع: الهجاء فى الأدب الأندلسي، د.فوزى سعد عيسى/١٨٧، دار المعارف "بدون تاريخ".

- **دوافع السخرية وبواعثها:**

تختلف النظرة إلى الحياة – بما فيها من مثل وأخلاقيات – من شخص لآخر فهناك الإنسان العادى الذى ينظر إلى الحياة فلا يكاد يرى أو يحس فيها بما يؤلم الشعور أو يجعل النفس تضيق به ذرعا، حتى ما يراه فيها من مخالفات سلوكية، أو مفارقات غريبة ، فإنه لا يعير ذلك اهتماما، ولا يفكر فى كيفية علاجه أو تقويمه.

وهناك الإنسان الذى ينظر إلى الحياة – بما فيها – بمثالية وحساسية، فهو يرى – من خلال صحبته للحياة – كل نافع وكل جميل فيها، ويشجع الناس على الإقبال عليه وطرح ما عداه مما يعد تشويها للمجتمع، فهو يرسم للحياة وللأحياء فى مخيلته صورة من الكمال والمثالية التى ترتبط بالواقع، فإذا ظهر ما يناقض ذلك، أو يقلل من نسبة الارتباط به، كان علاج ذلك عن طريق السخرية التى تدافع عن هذا الواقع وتحافظ عليه ، لأن صحبتنا لهذا الواقع كانت قوية، وتعلقنا به كان أقوى وأوثق.

لذا يمكننا أن نشير هنا إلى أهم دوافع السخرية وبواعثها فى النقاط التالية:

(١)المتناقضات :

- أكثر الأمور تسير فى الحياة على نظام مألوف وثابت، فلا نشعر نحوها بغرابة أو شذوذ، ولذا فنحن لا نضحك من هذه الأمور، لأن الشئ المألوف لا يضحك، أما الشئ الذى يغاير المعهود والمألوف، فقد يثير اشمئزازا، وقد يثير ضحكا؛ لأنه يعد نوعا من فقدان التوازن المنشود، وهو تصلب فى الجسم، أو فى الطبع، أو فى الخلق، ينذر بتقهقر الإنسانية، أو توقف نشاطها وتطورها[1].

١- راجع: الفكاهة فى الأدب، د/أحمد الحوفي، ج١/٣٧، ٣٨ .

وهذا الأمر يدفع المجتمع إلى تقويمه وعلاجه عن طريق السخرية منه والضحك عليه، والحياة مملوءة بالمتناقضات، وهى كثيرة ومتنوعة، نراها ونقع عليها فى حركة الناس فى الحياة، وفى احتكاك بعضهم ببعض.

"فقد يقع لأحدنا أن يصنع معروفا فى شخص ما .... ولكن يحدث ما لم يكن متوقعا، وما لم يخطر على البال، إذ تأتى النتيجة أشبه بالتنكر للعمل والتمرد عليه عند ذلك تتنبه أحاسيس المقارنة بين العمل وبين نتيجته، وبين ما كان يجب أن يكون، فيبدو الموقف. مثيرا للسخرية؛ لأنه عجز عن التوافق مع الخصال الإنسانية المعقولة أو مع المثل العليا" [1].

والمرأة العجوز المتصابية – التى تسرف فى التبرج، فتخرج بهذا السلوك عن العرف العام لمثيلاتها الطاعنات فى السن ، رغم عجزها فى نفس الوقت عن توفير الطاقة اللازمة للمطالب الجسمية والنفسية والشكلية لمظهرها وزينتها – تؤدى إلى الإحساس بالتناقض فى المجتمع، وهنا تأتى السخرية باعتبارها علاجا وتقويما لهذا الخروج.

- يقول البهاء زهير [2] فى امرأة مسنة تدعى التصابي، وتتعلل بالخضاب منكرا عليها هذا التصرف الشاذ المنافى للقيم والسلوكيات الفاضلة[3] :

يـــا هـــذه، ذهـــب الـــصبا فـــإلى متـــى هـــذا التـــصابي؟
فـــدعى معاشـــرة الـــشبا ب فقـــد يئـــست مـــن الـــشباب
مـــا هـــذه شـــيم الحـــرا (م) ئـــر، لا،ولا شـــيم القحـــاب[1]

١- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال /٢٦ .

٢- هو أبو الفضل زهير بن محمد المهلبي، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة القائد المشهور زمن الأمويين، ولد فى وادى نخلة على مقربة من مكة سنة ٥٨١هـ ، ونشأ فى مدينة "قوص" بصعيد مصر، ثم هاجر إلى القاهرة ومدح سلاطين بنى أيوب، وتولى ديوان الإنشاء، ثم أقصى عنه، وظل هكذا حتى مات سنة ٦٥٦هـ .
- ينظر فى ترجمته : وفيات الأعيان، ج٣٣٢/٢، ت د. إحسان عباس ، ط/دار الثقافة ببيروت.
الأعلام، الزركلى ، ج٥٢/٣، ط/دار العلم للملايين لبنان بيروت.

٣- ديوان البهاء زهير /٣٧، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد طاهر الجبلاوى ، ط/دار المعارف الثانية، "والأبيات من مجزوء الكامل".

فـــإذا عددتـــك فـــى الكـــلا (م) ب،حططت من قدر الكلاب
مـــا أنـــت ممـــن يرتجـــى لا فـى الخطـوب ولا الخطـاب

"إننا نسخر من الغير، إذا وجدنا فيه مغايرة لطبيعة المجتمع ، وشذوذا عن واقع الحياة ، فالحياة تحب أن ترى أثرها فى الأحياء، من نشاط وحيوية وحركة فإذا وجدت غير ذلك ثارت عليه، ومن ثورتها: السخرية والضحك والتهكم" [٢] .

- والغرض من السخرية حينئذ: هى إنزال نوع من العقاب على الشخص الشاذ عن التقاليد، لعله بذلك يفيق من غيبوبة الإحساس الزائف.

(٢)النقمة على المجتمع أحيانا:

يتعدى الهجاء الاجتماعى الساخر حدود الذات، ليشمل مساحات أوسع وأرحب من حياة المجتمع، فيصور ما يعانيه هذا المجتمع من اضطراب أو قصور أو فساد "فهناك ضرب منه يصور نقمة الفرد على المجتمع ، وثورته على ما يشهد فيه من اختلال فى المقاييس والقيم ، ويرى أحد الباحثين أن هذا الضرب أكثر أنواع الهجاء تعقيدا وأعمقها تجربة إنسانية" [٣].

والإنسان الساخر هو ذلك الإنسان الذى يتعالى بنفسه عن المجتمع، لشعوره بشيء من النقص أو الحرمان ، فيحاول أن ينقد المجتمع بإظهار ما فيه من جوانب النقص والتشويه؛ انتقاما لنفسه المهدرة، وإخفاء لهذا النقص الذى يلازمه ويلاحقه.

كما أن المجتمع توجد فيه – فى كثير من الأحيان – جوانب كئيبة، كضياع أهل الفضل، وارتفاع شأن المهرجين والمصفقين مع كل اتجاه ، وتوهج نجم الكذابين والمخادعين وأفول نجم الصادقين والأمناء ... وغير ذلك من المثالب والمغامز التى تصل بالمجتمع إلى قمة

١- القحاب: جمع: قحبة ، وهى العجوز، وأهل اليمن يسمون المرأة المسنة: قحبة، والكلمة مولدة (اللسان ، مادة قحب، ج١/٦٦١).
٢- السخرية فى أدب المازنى ، د. حامد الهوال /٢٩ .
٣- الهجاء فى الأدب الأندلسى ، د. فوزى عيسى/١٦٣ .

التعفن، وتكون مدعاة وباعثا على السخرية والتهكم والنقد اللاذع لهذا المجتمع، كنوع من التشفى والانتقام .

"فالسخرية ليست بالضرورة مثيرة للضحك؛لأنها يمكن أن تكون مرة خاصة عندما تهاجم الجانب المتجهم من المجتمع، وربما أثارت ابتسامة المتلقي ولكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة فى المجتمع ... وغالبا ما تحمل ابتسامة السخرية شحنات من الأسى والهم تفوق فى درجتها وكثافتها الشحنات الكامنة فى البكاء والعويل"[١]

(٣)البغض والانتقام الهادئ:

- للعداء بين الناس أسباب كثيرة، فقد ينفجر بركان العداء والشقاق بين شخص وآخر نتيجة الاحتكاك الناشئ بينهما فى شأن من شئون الحياة وقد يكون سبب العداء هو ظهور النقص فى شخص آخر متعال، ولكنه – مع ذلك – لا يشعر بما هو غارق فيه من نقص، فيأتى الإنسان الساخر فيحاول أن يعيده إلى صوابه، وإلى حالته الحقيقية ، ويجعله يفيق من غيبوبة الإحساس الكاذب بالعظمة والاستعلاء، وذلك عن طريق البحث عن عيوبه ومثالبه، ومحاولة تضخيمها وإعلانها على رؤوس الأشهاد بصورة مضحكة ولاذعة لغرض الانتقام.

فـ"البغض والانتقام هما الشيطانان التوءمان اللذان يولدان السخرية"[٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه، أن البغض الذى أشرنا إليه، ليس هو ذلك الخلق الذميم البغيض الذى يورث صاحبه الكراهية لأخيه، والرغبة فى الاستئثار بكل خير من دونه وإنما هو تجاوب النفس الحساسة مع الحياة والأشياء[٣] بدليل رغبة الإنسان الساخر فى إصلاح الحياة، وتقويم المجتمع من خلال إشارته إلى مواطن العطب فيه.

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢١ .
٢- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١٦ نقلا عن العقل الباطن لآدلر، تعريب حافظ محمود/١٠٧ .
٣- راجع: مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة ، العدد (١٤) ، ص٣٣٤ ، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

ومع ذلك، فليس بخاف أن هذا البغض ليس متجها صوب الأشخاص وإنما هو مصبوب على السلبيات من الأخلاق والسلوكيات، وهنا يصبح أمام الشاعر نوع من التحدى الصعب، إذ كيف يفرق فى داخله بين مشاعر حب الإنسان، ومشاعر كراهية أخلاقه وسلوكه، ولا يقدر على هذا إلا القليلون من الأدباء من أصحاب القلوب الواسعة، والنفوس الحساسة.

(٤)الشعور بالتعالى والغرور:

قد تتولد السخرية نتيجة الإحساس بالغرور والتعالى من جانب الشخص الساخر فقد يكون الغرور متأصلا فيه، فنراه يعمد إلى ركوب صهوة الغرور والتكبر ساخرا، وناقدا وباحثا عن العيوب والنقائص فى محاولة لتضخيمها بصورة تزرى بهذا المجتمع، وتضعه فى مكانة غير لائقة.

لذا يقول الأستاذ/عباس العقاد: "فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر بل هما جماع أبوابه كافة" [1] .

ذلك أن الغرور يدفع صاحبه إلى السخرية من المجتمع ومن أفراده، سواء أكان ذلك بالحق أم بالباطل، إذ يكفى – من وجهة نظر الساخر- أن يكون هو غير راض عن وضع معين أو سلوك بعينه فى المجتمع، فيدفعه عدم الرضا إلى إشهار سلاح السخرية فى وجه المجتمع وفى وجه الآخرين.

ويقف المتنبى على رأس هذا الاتجاه فى أدبنا العربي.

(٥)قوة الإحساس بالواقع:

والسخرية قد تكون منبعثة من الحساسية الزائدة عند الإنسان الناقد فدرجة الإحساس عنده قد تكون عالية، ويكون هو ذا بصيرة نفاذة تلتقط عيوب ونقائص المجتمع الذى يعيش فيه بيسر وسهولة، مع ارتباط ذلك بتأصل نزعة المرح والدعابة فى نفسه، مما

١- مطالعات فى الكتب والحياة/٨٩ ، ط/التجارية ١٩٢٦م.

يدفعه إلى تناول جوانب النقص فى الأشخاص أو المجتمع بأسلوب ساخر متهكم ؛ قصدا إلى الإصلاح والتقويم.

وقد يقصد الأديب الساخر من وراء ذلك معالجة هذه الحساسية الزائدة "لأن الحساسية مرض ، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه، فيجعله لا يرضى عن شئ فى الحياة، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعى ، وحب البقاء إلى الفطنة لهذه الوسيلة فى علاج نفسه، أو التفتيش عما يشعر به" [1].

وقد نشعر – فى هذه الحالة – أن السخرية خفيفة ، وأن الأديب لا يقصد إضحاكنا وإن كان فى داخله "يعانى إحساسا بالمرارة لم يتوقف به عند حافة الحزن والألم ، ولكنه ثار عليه ، وتعالى على السكينة تحت ضغطه، وأخذ يصوغه فى ثوب جديد، قد يكون رمزيا وقد يكون صريحا يحمل كل مظاهر الاستخفاف والتعالى الساخر الذى يعنى الانتصار على الأحداث، أو تخطى الحواجز التى قد يعجز عن تخطيها الآخرون"[2].

والواقع أن الاستخفاف وما يصاحبه من الإحساس بالمرارة يقومان مقام عنصر الإضحاك فى السخرية، وحتى لو خلت السخرية هنا من عنصر المرح والإضحاك فهو لا يؤثر عليها؛ لأن من السخرية ما يأخذ أحيانا صورة جدية تخلو من عنصر الإضحاك وهى فى نفس الوقت محققة للهدف ، ومصيبة للغرض.

والحق أن الإنسان كلما كانت صلته بهذا الواقع قوية، كان أقدر على الإحساس به ، وأشد حرصا عليه، وأشد اهتماما بأن يكون منسجما ومقبولا.

"فكل شئ يمس هذا الواقع ويعاكسه ، يصبح فى نظر الإنسان هدفا للحرب أو المقاومة ..... وقد لا يصل الأمر إلى هذا الحد فتعالجه طبيعة الإنسان الفنية بوسائلها الرقيقة الهادئة ، التى تستخدم الذكاء الإنسانى الموروث فى تحقيق أهدافها..... وبوحى هذا

١- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١٧ .
٢- السخرية فى أدب المازنى ، د. حامد الهوال/٢٠ .

الرصيد نستخدم أسلوب السخرية فى الحفاظ على الواقع الذى طالت صحبتنا له وتعلقنا به" [١].

(٦)الميل الفطرى إلى المشاكسة:

الشر والعدوان عنصران متأصلان فى النفس البشرية، حتى لو لم يكن هناك داع لهذا الشر، فإن نفس صاحبه دائما تسعى إليه، وتهدف إلى إغاظة الناس والتشفى منهم عن طريق إيلامهم ، وإثارة كوامن الأسى فى نفوسهم عن طريق جرحهم بمشرط السخرية والتهكم.

وقد يكون دافعه إلى هذا الصنيع: ضعة أصله، وحقارة منبته، ورغبته فى الانتقام والتشفى من الآخرين.

"وهذا متأصل فى الطفولة الإنسانية حينما نرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة، أو يعتدون عليها من غير ما رحمه أو شفقة لغير سبب ظاهر ونرى بعض الناس قد تأصل فيهم الميل إلى المشاكسة، وجرى فى طبعهم إلى حد مضايقة غيرهم ، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألمون" [٢].

ولا يزال الشر ينمو ويتكاثر بين طوايا النفس حتى يحدث لها نوعا من التضخم الذاتى المذموم، الذى يدافع عن نفسه من زاوية تحقير الآخرين، والحط من قدرهم.

ولعل المثال الواضح لهذه الظاهرة فى أدبنا العربى هو الشاعر "الحطيئة ت٥٩هـ" فقد "ولد فى بنى عبس دعيا لا يعرف له نسب، ولا يصله بالشرف سبب، فشب محروما مظلوما مذموما لا يجد مددا من أهله، ولا سندا من قومه؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت، ويدفع به العدوان، وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته" [٣] .

١- المصدر السابق/٢٤، ٢٥ .
٢- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه /١٨ .
٣- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ط/٢٤/ ١٥٥، طبعة المدارس الثانوية العليا.

ولذا فقد "عدا على الناس بالشتم ينال منهم قبل أن ينالوا منه" [1] .

وهكذا تساعد النشأة الدنيئة على تأصيل جانب الشر والمشاكسة فى نفوس بعض الأشخاص، حتى يصبحوا معاول هدم تقوض صرح المجتمع وتهدم كيان أفراده.

وما حدث ذلك إلا نتيجة حتمية لفقدان التوازن بين الإنسان وبين مجتمعة وبينه وبين نفسه.

(٧)التفاؤل والتشاؤم:

تختلف نظرة الناس إلى الحياة اختلافا واضحا، ومرجع هذا الاختلاف هو أنهم مختلفون كذلك فى حبهم لها، وإقبالهم عليها، أو بغضهم لها. والإنسان المقبل على الحياة هو ما يعرف بالإنسان "المتفائل" أما الإنسان الكاره لأوضاع الحياة والأحياء، فيطلق عليه الإنسان "المتشائم" "والتشاؤم والتفاؤل مرجعهما إلى الإنسان، فهو الذى إن قبل الحياة كما يهديها القدر إليه أشرقت نفسه واغتبطت وابتسمت، وإن لم يقبلها وأحس بأشواكها وشرورها، أظلمت نفسه ويئست وابتأست، فنفس الإنسان هى التى تعكس له الحياة إما نقية جميلة، وإما كدرة قبيحة" [2] .

- والأمل هو سر حياة الإنسان ، والتمسك به بعد – فى حد ذاته – تمسكا بالحياة وهو لون من الثقة التى تملأ جوانب النفس البشرية بالتفاؤل وتشعر الإنسان بأنه قادر على التغلب على كل الصعوبات والعقبات التى قد تعترض طريقه فى أثناء رحلته فى الحياة، ولكن هذا الأمل قد تخبو جذوته فى داخل النفس، وتصبح الحياة معتمة فى عين ذلك الإنسان، فيرى النصف الفارغ من الكوب ولا يرى النصف الآخر المملوء.

١- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، قحطان التميمى/٢٢ .

٢- دراسات فى الشعر العربى المعاصر، د. شوقى ضيف/١٨٩، الطبعة التاسعة، دار المعارف ١٩٩٣م (بتصرف).

obeikandl.com

- وطريقة الناس فى التعامل مع الحياة والأحياء، تتفاوت من حيث التفاؤل والتشاؤم ، ومع ذلك فالنتيجة واحدة؛ لأن "التشاؤم يدفع الإنسان إلى السخرية من كل شئ، والتفاؤل والاستخفاف بالحياة يدفع الإنسان كذلك إلى الاستهانة بالحياة، والسخرية من مآسيها، ومقابلة آلامها وهمومها بالابتسام والرضا"[1].
- والتفاؤل والتشاؤم يعدان من الأمور المألوفة التى نلمسها فى حياتنا اليومية فنحن نرى المتشائم الذى تضيق نفسه بكل ما حوله من حياة وأحياء، فيدفعه ذلكإلى إشهار سلاح السخرية فى وجه كل من يحيط به ، أو يتصل به بسبب كنوع من العقوبة التى ينزلها على رأس المتمتعين بالحياة وبهجتها على حين أنه محروم من كل تلك المباهج والمحاسن.

وهذه النزعة مرفوضة دينيا؛ لأن المؤمن لا يمكن أن يصاب بالإحباط والقنوط أو يتسرب القلق إلى نفسه، لأن ثقته باللّه أقوى من كل شئ، فإذا لمعت فى تشاؤمه بارقة من الأمل، وكان للبياض نصيب فيه، فهو تشاؤم لا تضيق به النفس.

- ووقت الشباب – غالبا – هو وقت التشاؤم ، ثم تبدأ النفس بالتخفف من هذه الخاصة تدريجيا حتى يحدث الصلح بينه وبين الحياة.
- يقول الدكتور محمد مندور: "ولا غرابة فى ذلك، فالشباب هو عصر التشاؤم والخصام مع الحياة، بينما يقل هذا التشاؤم حدة، ويزداد المرء تسامحا كلما طال العمر، واتسعت التجارب ، وكأن معاشرة الحياة تنتهى إذا طالت بالصلح معها وقبولها على علاتها ، أو الاستخفاف بها، والانتقام من مآسيها بالسخرية" [2].

ويظهر من هذا النص أن السخرية نتيجة مترتبة على نزعتى التشاؤم والتفاؤل حيث إن كلتا النزعتين تنتهى إلى السخرية والتهكم من الآخرين فى نهاية الأمر.

١- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصور ، العدد ٣٣٢/١٤، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢- إبراهيم المازني، د. محمد مندور/٢٢، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٤م.

وفى أدبنا العربى القديم والحديث أمثلة عديدة لهذا الاتجاه، أمثال: ابن الرومي والمتنبي، وأبى العلاء، وعبد الرحمن شكري، والمازني، والشرنوبي، ومحمود أبو الوفا، وغيرهم كثيرين٠

"ونحن لا نستطيع أن نفهم هذا الشعور حق الفهم إلا إذا رجعنا بذاكرتنا إلى مصر فى مفتتح هذا القرن (القرن العشرين) وما كان يجثم على صدرها من غمة الاحتلال الإنجليزى ، وما كان يتلاحق عليها من الكوارث والفواجع والأخطار" [١]٠

وهو ما جعل الشباب المصرى يشعر شعورا حادا بالألم واليأس، بسبب ما يجده ملقى على عاتق مجتمعه من أغلال وأثقال ، وما يجده بين جوانبه من فساد وقتامة "فقد طغت موجات اليأس طغيانا جارفا فى تلك الأيام السود، أيام الاحتلال على جميع الشباب وجميع النفوس، وهو طغيان قد فل العزائم، وثبط الهمم، وأمات الآمال والقلوب فلم يعد الشباب يستطيعون الإقدام والعزم الصادق بل أصبحوا فريسة الإحجام والتردد والخنوع، بل لقد أصبحوا فريسة الشك الأسود الذى يحيل الحياة كلها سوادا ، بل لقد أصبحوا غرقى فى يم لا ضفاف له" [٢]٠

والحال كذلك مع الإنسان المتفائل المقبل على الحياة، الذى لا يرى فيها إلا الأمل المشرق، والمستقبل البسام، فإن تفاؤله هذا يدفعه هو كذلك إلى الاستخفاف بما حوله من حياة وأحياء٠

وتفاؤل الإنسان بالحياة، ينبغى أن يكون تفاؤلا منضبطا بضوابط العقل السليم والفكر الراشد "فهو لا يتفاءل تفاؤل البله، ولا تفاؤل من يأخذون الحياة من ظاهرها المضئ، ويمضون دون تفكير فى جوانبها المظلمة" [٣]٠

١- دراسات فى الشعر العربى المعاصر، د/شوقى ضيف /١١١ ٠
٢- دراسات فى الشعر العربى المعاصر، د٠ شوقى ضيف /١١٢ ٠
٣- المصدر السابق/١٨٣ ٠

فاقتران التفاؤل بالإحساس بالألم والقلق والأسي، يعطى لهذا التفاؤل قيمته ويجعله تفاؤلا إيجابيا متجاوبا مع أحداث الحياة، فالإنسان "يقبل على التفاؤل فرارا من التشاؤم الكريه ، وما يجر من حزن وقلق، بل لكأنه الملجأ الذى يجد فيه راحة قلبه من الهواجس المخيفة، والخواطر المفزعة المرعبة، وهى خواطر لا تأتيه من إحساسه بآلام الإنسانية وحدها، بل تأتيه أيضا من عجزه عن حل ألغاز الوجود وفهم أسراره" [1] .

وهكذا نجد التفاؤل والتشاؤم متساويين فى نهاية الأمر، من حيث إن كلا منهما يدفع صاحبه إلى السخرية والتهكم والاستخفاف بالحياة والأحياء.

(٨)فساد الواقع السياسى والاجتماعى:

لعل من أهم دوافع السخرية: "فساد الحالة السياسية والاجتماعية" وفساد الحالة السياسية فى أى مكان يدفع أدباء ذلك المكان إلى السخرية والتهكم ، وإلى البحث عن جوانب النقص والعيوب، وإبرازها فى صورة تثير الاشمئزاز؛ قصدا إلى العلاج وإصلاح المجتمع المتهاوى.

- ونحن إذا نظرنا إلى الأمة المصرية، نجد أنها رزحت تحت حكم العثمانيين زمنا طويلا، ولم تكد الأيام تعصف بهذا الحكم ، حتى وقعت الأمة المصرية مرة أخرى فريسة للاستعمار الأوربى اللعين، الذى مزق شملها، وحرمها خيراتها، وأذاقها ألوانا من الهوان متمثلا فى ظلمه واستبداده وإطلاق يده فى البلاد.

وقد ترتب على سوء الوضع السياسي: ظهور فن السخرية بأسلحته الفتاكة فقد أخذ أدباء الأمة وشعراؤها "يسخرون ويتهكمون من غباء الحكام، وجهل الوزراء والكبراء وسخف الملوك والأمراء، فإذا أخفقت الحكومة فشلا تردت فيه، جاء الخبر – الذى حاولت الحكومة جاهدة أن تخفيه – محمولا على الأكتاف نظما فكاهيا يدين الحكومة، ويسخر منها، ويكشف ما حاولت إخفاءه" [2] .

١- المصدر السابق /١٩١ .

٢- الفكاهة فى الأدب المصرى الحديث (رسالة دكتوراه) إعداد: د.طاهر عبد اللطيف عوض/١٣٩٩،٦٨هـ - ١٩٧٩م.

كذلك سخر الأدباء من الحاكم المستبد، وسخروا من الشرذمة التى تلتف حوله ونفوسهم تمتلئ بالزهو والغطرسة ، وسخروا من المتوددين إلى المستعمر، ومن كل من يلوذ به من قريب أو من بعيد.

ولعل الامتيازات التى كان الأجانب يحظون بها فى الدولة من أكثر الأمور توليدا ودفعا إلى السخرية "فوجود هذه العناصر الأجنبية المسلحة لاستغلال الشعب المصرى الأعزل، جعل المصرى لا يستطيع أن يحاربه إلا بالنكتة والسخرية والتهكم فهو يسخر من عجرفته الجوفاء، وجهله الأعمى، وتسلطه الأخرق، وحمقه وشهواته وسوء معاملته وتقديره للشعب" [1].

ومن الفساد السياسى الذى عانت منه البلاد كذلك: انتشار المحسوبية والتزييف وتغلغل النفوذ الأجنبى فى البلاد، واستئثاره بخيرها، بينما لا يبقى لأبناء الشعب المصرى سوى فتات ضئيل لا يسمن ولا يغنى من جوع.

كذلك أساء الأجنبى الدخيل معاملة أصحاب البلاد الشرعيين، واختل فى يده ميزان العدالة ، وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب.

ولقد عاش المصريون هذه المحنة، واصطلوا بنارها ، وتشعبت بها نفوس الأدباء منهم "فانطلقت أقلامهم تعلن الرفض فى أسلوب أدبى فكاهى ، يموج بين التهكم المرير من أفعال المستعمر، والسخرية اللاذعة من الأوضاع المختلفة فى البلاد، هادفا من وراء ذلك إلى مناهضة المستعمر، ومحاربته بأسلوب يفهمه الجميع دون حاجة إلى سلاح غير سلاح الكلمة، والعبارة الكاشفة عن آلام الشعب مما حاق به"[2].

هذا عن الحالة السياسية السيئة، أما بالنسبة للحالة الاجتماعية ، فإن العيوب الكثيرة التى تمخضت عنها الحياة الحديثة ، قد دفعت الأدباء إلى الوقوف فى وجهها والسخرية منها.

١- الفكاهة فى الأدب المصرى الحديث (رسالة دكتوراه) إعداد: د. طاهر عبد اللطيف عوض /٦٩، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. وراجع:الفكاهة فى الأدب، د. أحمد الحوفي/٥٥ .

٢- الفكاهة فى الأدب المصرى الحديث، د. طاهر عوض/٧٣ .

obeikandl.com

وكان من أهم القضايا والموضوعات التى تفشت فى البيئة المصرية: النفاق والرياء، والمداهنة، والتسول، وخروج المرأة إلى ميدان الحياة العملية جنبا إلى جنب مع الرجل، وهوسها بالأزياء الحديثة، والمبالغة فى وضع المساحيق على وجهها.

كذلك تفشت موجة الغلاء، وارتفاع الأسعار بصورة شغلت الأذهان وانتشرت كذلك الاختلاسات والمجاملات والرشا.

ومن مظاهر الفساد الأخلاقى : التخنث والميوعة التى بلى بها شباب الأمة المصرية، وانتشار المخدرات بين أبناء الوطن، والاغترار بالمظاهر الخداعة، وإهمال ذوى الشأن والنباهة.

وقد كان هذا الفساد الاجتماعي، وهذه الأمراض الخطيرة تستفز مشاعر الأدباء فى كل لحظة ، وكانت تدفعهم إلى إشهار سلاح السخرية فى وجه المشجعين لها "ليس من أجل الإضحاك ، ورسم البسمة على الشفاه فحسب، لكن بجانب هذا يهدف إلى الإصلاح، وتقويم العيوب، والعمل على محوها بأسلوب بسيط ساخر خارج عن حد العنف والقسوة" [1] .

هكذا ساءت الحالة السياسية ، وتبعها سوء الحالة الاجتماعية، وكان لابد- والحالة كذلك- أن تسوء الحالة الاقتصادية أيضا فقد "وجد فى مصر مجتمع إقطاعى كبير تتحكم فيه فئة أصحاب المصالح، والانتهازيين المغرضين ممن باركهم القصر، وحمى مصالحهم الاستعمار، وساعد على استمرار تلك الأوضاع السيئة أن رجال السياسة وأعضاء الأحزاب شغلوا بما كان بين بعضهم وبعض من منازعات وخصومات، وأغفلوا الإصلاح الاجتماعى والاقتصادي، ولم يهتموا بتحرير أفراد الشعب الكادحين من كابوس الإقطاع بل حرصوا على امتصاص دماء الشعب" [2].

وقد زادت شدة الإقطاع وشراسته بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك حين غفل الحكام عن الإصلاح الاقتصادى فى البلاد، وشغلوا بمصالحهم الخاصة، والتى تعتبر جزءا من السياسة الاستعمارية فى البلاد، كما أن الطبقة الإقطاعية وأغنياء الدولة هرعوا خلف

١- المصدر السابق/٦٦ .وراجع: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي/٥٥ .

٢- الفكاهة والسخرية بين المازنى والبشرى (ماجستير) إعداد/إبراهيم محمد قاسم /٧ ، القاهرة ١٩٧٨م.

الاستعمار، وقلدوه فى مفاسده، وإهداره الأموال على الملذات والشهوات، بينما ظلت الطبقة الفقيرة تعانى من شظف العيش،وقسوة الحياة وقلة الدخل، وانتشار الجهل والمرض

وبباعث من كل هذه الضغوط راح الأدباء ينفسون عن أنفسهم بالنكتة والدعابة والتهكم، والسخرية من كل ما يحيط بهم، ويفسد عليهم حياتهم.

هذا، وتضيف الدكتورة "نعمات أحمد فؤاد" باعثا آخر من بواعث السخرية فى الشعر الحديث، وهو ما يغشى نفس صاحبه من قلق ، وما يساوره من شك وما يرهقه من ظمأ، ويمضه من جدب مادى وجدب معنوى [1] .

ولعل القلق والشك الذى ينتاب الأدباء تبعا لظروف الحياة المتقلبة، هو ما يقدح فى نفوسهم شرارة السخرية والتهكم على مر العصور.

وبعد، فهذه أهم دوافع السخرية وبواعثها، ويمكن أن يضاف إلى هذه الدوافع ما قد يوجد فى حياة بعض الأشخاص من أحداث خاصة، أو تأثر بالثقافات المختلفة، أو غير ذلك من المؤثرات.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن الأديب الساخر فى كل تلك المواقف، ينبغى أن يكون ذا روح فكهة مرحة، وأن يكون موصولا بالدعابة بسبب، وأن تكون السخرية طبيعة فى نفسه؛ لأن (الفكاهة أو السخرية صفتان لا تكتسبان ، ولا يبرزان فى الإنسان إلا إذا كان هناك طبع موات، وموهبة فطرية فى هذا المجال" [2].

ألفاظ السخرية:

عندما ندقق النظر فى الألفاظ أو المترادفات العربية التى تدل على السخرية أو التهوين من شأن الآخر، أو الحط من قدره، سوف نجد مجموعة من الألفاظ تمثل هذا المقام، علما بأن المعاجم العربية لا تكاد تفرق بين مدلولات بعض هذه الكلمات تفريقا قاطعا، بينما أشارت – فى القليل النادر – إلى ما قد يوجد بين بعضها من تشابه أو اتفاق فى المعنى.

١- راجع: خصائص الشعر المصرى الحديث/٥١، ط/دار الفكر العربى ١٩٨٠م.
٢- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد ٣٥٦/١٤، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- **وهذه الألفاظ هي**: السخرية، والتهكم، والهزء، والتندر، والاستخفاف والمداعبة والتعريض، والضحك.
- فأما السخرية، فهى مأخوذة من الفعل (سخر) ، وأصل التسخير فى اللغة: التذليل، وقد جاء فى لسان العرب: سخرته: أي: قهرته وذللته، وسخره تسخيرا: كلفه أن يعمل عملا بلا أجرة، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فهو "مسخر" [1] .

فالمادة توحى باللين والخفاء، وعدم الإفصاح عن المراد بطريقة مباشرة "ففى السخرية لين أشبه بلين الأفاعي، والساخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر ولكنه يقتل بسخريته" [2] .

- وأما التهكم، فقد جاء فى لسان العرب: هو السيل الذى لا يطاق ، والتهكم: تهور البئر، وتهكمت البئر: تهدمت، وهكمت غيرى تهكيما غنيته، وذلك إذا انبريت تغنى له بصوت (على سبيل التهكم والسخرية).

والتهكم: الاستهزاء ، وفى حديث أسامة : فخرجت فى أثر رجل منهم جعل يتهكم بي، أي: يستهزئ ويستخف.

والهكم: المتقحم على مالا يعنيه الذى يتعرض للناس بشره، وقد تهكم على الأمر وتهكم بنا: زرى علينا وعبث بنا، والتهكم: التكبر، والمتهكم: المتكبر[3].

إذن فالتهكم: استهزاء فى قوة، وفى تقحهم ، وعدم خفاء[4] .

وهنا يظهر لنا الفرق بين السخرية والتهكم ، فالسخرية: نقد هادئ خفى أشبه ما يكون بالمخدر، والتهكم: هجوم فى قوة وعنف بغير ما رحمة ولا شفقة.

١- لسان العرب، ج٣٥٢/٤ مادة (سخر).
٢- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١٣ .
٣- انظر: لسان العرب، ج٦١٧/١٢ مادة "هكم".
٤- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١١ .

- والفرق بين الهجاء والتهكم ، هو أن الهجاء صادر عن نفس واجدة غاضبة حاقدة بينما التهكم صادر عن نفس ساخرة ناقدة، مبرأة من الحقد والموجدة[١] .
- والهزء: السخرية، وهزأ الشئ يهزؤه هزءا: كسره، وهزأ الرجل: مات، وهزأ الرجل إبله هزءا: قتلها بالبرد، وهزأت الراحلة: حركتها.

والأفصح فى الفعل هنا أن يتعدى بالباء، فيقال:هزئت به، ولا يقال:هزئت منه[١]. ففى المادة – كما نلحظ – تحريك، وقتل بارد لين من غير عنف أو صوت أو تكسير[٢] .

- ويفرق أبو هلال العسكرى بين الاستهزاء والسخرية، فيذكر أن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه[٣] .

وعليه، فلابد أن تدل نغمة الصوت فى الاستهزاء على أن شخصا معينا يهاجم شخصا آخر، أو ينتقده، أو يوجه إليه تعليقا ساخرا[٤] .

وبذلك يظهر أن الهزء لفظ من ألفاظ السخرية، وهو يمتاز باللين والرخاوة حيث يتسلل فى لباقة وسهولة حتى يصيب الشخص المقصود فى مقتل.

- وأما مادة "تندر" فهى من الفعل "ندر" ، تقول: ندر الشيء يندر ندورا: سقط وقيل: سقط وشذ، وقيل: سقط من جوف شئ أو من أشياء فظهر[٥] .

وتنادر على فلان: سخر منه[٦].

١- انظر: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي/٧٢ .
٢- انظر :لسان العرب ، جـ١/ ١٨٣، مادة "هزأ".
٢- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١١ .
٣- راجع: الفروق اللغوية، تحقيق : حسام الدين القدسي/٢١١، مكتبة القدس للطبع والنشر والتوزيع١٩٩٤م.
٤- انظر: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٢ .
٥- انظر: لسان العرب، ج١٩٩/٥، مادة "ندر" .
٦- انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة/٦٠٨، مادة "ندر"، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

"والظاهر أن الكلمة أخذت من أصل المادة "ندر"، وفيها محاولة الإسقاط أو إظهار العيوب بطريقة ملتوية ، فيها تباله وتجاهل وإظهار نوادر الشخص الذى يتندر منه وشذوذه" [١] .

فالتندر إذن هو نوع من الهجاء الذى لا يصدر فيه الشاعر غالبا عن حقدأو سخط وإنما يعمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف [٢] .

وقد يكون تندر الشخص من نفسه أبعث على الإضحاك من تندر غيره به لأنه صار مبعثا مضاعفا للضحك، حتى لكأنه الضحك نفسه.

وبديهى أن الشخص الذى يتندر بنفسه، شخص فكه لبق خفيف الروح سريع الخاطر، وهو إلى ذلك بعيد النظر، يتفكه بنفسه قبل أن يتفكه الناس به[٣].

- ومن ألفاظ السخرية: "الاستخفاف" وهو مأخوذ من الفعل خف، والخفة ضد الثقل والرجوح، ويكون فى الجسم والعقل والعمل، واستخف فلانا: رآه خفيفا واستخف فلانا: أهانه، واستخف به: استهان به وأخفنى الشئ: إذا أغضبك حتى حملك على الطيش، واستخفه فلان: إذا استجهله فحمله على اتباعه فى غيه، ومنه قوله – تعالى- :
- "فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ " [٤].
- أي: حملهم على الخفة والجهل [٥] فمادة الاستخفاف تدور حول الخفة والاستهانة بعقل الشخص المتهكم به أو المسخور منه.

ويلاحظ أن "الاستخفاف" فيه استجهال وإنكار لعقل المتهكم منه.

١- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١١ .
٢- راجع: الهجاء فى الأدب الأندلسي، د.فوزى عيسى/١٨٧، دار المعارف "بدون تاريخ".
٣- انظر: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفى ج١٠٣/١ .
٤- سورة الزخرف، من الآية:٥٤ .
٥- لسان العرب، ج٧٩/٩، ٨٠، والمعجم الوجيز/٢٠٥ .

- ومن ألفاظ السخرية "التعريض"٠

والتعريض: خلاف التصريح، جاء فى لسان العرب: عرض لى بالشيء: لم يبينه وتعرض: تعوج، يقال: تعرض الجمل فى الجبل، أي: أخذ منه فى عروض فاحتاج أن يأخذ يمينا وشمالا لصعوبة الطريق ، وعرض لفلان وبه: إذا قال فيه قولا وهو يعيبه، والمعاريض من الكلام: التورية عن الشئ بالشئ، أو ما عرض به ولم يصرح ، والتعريض فى خطبة المرأة: أن يتكلم بكلام يشبه خطبتها ولا يصرح به [١].

فالمادة – كما نرى – توحى بالسخرية أو التهكم من الغير بطريق خفى مبهم لا يفهم من معنى الكلام القريب، وإنما يلمح من معناه البعيد٠

- يقول الدكتور أحمد الحوفي: "نريد بالتعريض أن ينطق المتكلم بكلام لا يريد به معناه فى ذاته، وإنما يشير به إلى معنى بعيد يفهمه السامع، وليس بين المعنيين تلازم كما فى الكناية، أو دليل على المعنى القريب يخدع عن المعنى البعيد كما فى التورية" [٢] ٠

والتعريض على ذلك لون من الكلام يسلك المتكلم فيه مسلك التلويح بما يريد مع امتزاج ذلك بالظرف ، وخفة الروح، والحيلة المضحكة٠

- ومن ألفاظ السخرية – كذلك – الضحك٠

والضحك معروف كما جاء فى لسان العرب، فهو من ضحك يضحك ضحكا وضحكا وضحكا وضحكا أربع لغات٠

والضحك: ظهور الثنايا من الفرح، والضحك: العجب، وهو قريب مما تقدم[٣].

- ويذكر بعض النقاد أن الذى يستدعى الضحك منا: هو أن الحياة ملأى بالمشقات والمتاعب والآلام ، والضحك هو المتنفس الذى يخفف ضغطها وينسى همومها ويلقى بعض أثقالها، ويحرر من قيودها الثقال زمنا يطول أو يقصر٠

١- لسان العرب، ج١٨٢/٧ ، ١٨٣ ٠
٢- الفكاهة فى الأدب، ج٥١/٢ ٠
٣- لسان العرب، ج٤٥٩/١٠ ٠

obeikandl.com

ومن هنا كان الضحك نزعة إنسانية غريزية لها قيمة عظيمة فى حفظ حياة الفرد وحياة المجموع.

وقد تطورت هذه النزعة من ضحك تثيره أمور عارضة إلى ضحك تثيره أمور مقصودة معدة[١] .

ويبدو أن صور الضحك ومنابعه كثيرة ومتعددة، فالضحك داخل فى كل صورة من الصور السابقة؛ لأن الناس يضحكون ضحك سخرية، ويضحكون ضحك تهكم، أو ضحك هزل، أو ضحك ازدراء، أو ضحك تعريض، أو ضحك دعابة[٢] .

وأيا ما كان الأمر،فالناس يضحكون لأن الضحك"يريح أعصابهم،ويشرح صدورهم ويقوم أخلاقهم، ويشعرهم بشيء من الصلة فيما بينهم، ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعهم ، ويربى فيهم ملكة النقد، ويوقظ فيهم التنبه إلى أخطائهم وأغلاطهم" [٣]

- **ومن ألفاظ السخرية: الدعابة.**

والدعابة هى المزاح، وهى اسم من الفعل: داعبه مداعبة، والمداعبة: الممازحة وفى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام كان فيه دعابة، حكاه ابن الأثير فى النهاية والدعابة: اللعب، والدعابة: نملة سوداء، وتدعبت عليه: تدللت عليه[٤] .

فأصل المادة يوحى بالخفة والبساطة وعدم التعقيد.

- ولذا عرفها بعض النقاد بأنها نوع من التهكم الخفيف غير المؤذي[٥] .
- وعرفها آخر بأنها: القدرة الخاصة على استثارة الضحك أو الابتسام لدى الآخرين من خلال بعض الملاحظات أو التعليقات التى تكشف رشاقة فى التعبير، وبراعة

١- راجع: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج١ /٥ .
٢- راجع: الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/١٧ .
٣- المصدر السابق/١٦ .
٤- لسان العرب، ج١/٣٧٥، ٣٧٦، مادة "دعب"، وانظر: فى دعابته صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة فى كتاب : "أدب الدنيا والدين" لأبى الحسن الماوردى ، ت/مصطفى السقا/٣٠١، الطبعة الخامسة، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر سنة ١٩٨٦م.
٥- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي/١١٥ .

وسرعة فى الإدراك للمتناقضات، والجمع بينها فى تعبيرات الابتسام والضحك[١]

ويقول عنها الدكتور شوقى ضيف:الدعابة أخف ألوان الفكاهة، وهى فكاهة الأشخاص الوقورين، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسام الخفيف،لا إلى الضحك العالي[٢].

والأصدقاء حين يتداعبون ويتضاحكون فإنهم "يتخيرون بعض جوانب الضعف فى أصدقائهم، فيتندرون بها، أو يتخذون خصلة اشتهر بها الصديق ملائمة للدعابة فيسخرون بها تضخيما أو قلبا أو عكسا ، أو يعمدون إلى شئ يعتز الصديق بامتلاكه، وليس فى نظرهم جديرا بهذه العزازة ، فيجعلونه مادة لتندرهم، ويبالغون فى إعزاز الصديق لما يمتلك.

وإذا كان الغرض هو الدعابة، فإنها تحتاج إلى مهارة فى التعبير والتصوير بحيث لا تؤذى الصديق، ولا تغض من قدره.

وقد يبدو فى بعضها ما يشبه الإيلام ، ولكنه عند النظرة الفاحصة، يظهر أنه من مزاحات الأصدقاء الذين لا كلفة بينهم" [٣] .

المزاح:

يأتى المزاح بعد الدعابة،وهو الدعابة- كما فى لسان العرب -، وهو نقيض الجد ونقل شارح القاموس أن المزاح: المباسطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف دون أذية[٤]

لذا عرفه الدكتور شوقى ضيف بقوله: المزاح خطوة بعد الدعابة نحو الضحك أو نحو الابتسامة العريضة، وهو لا يحمل خبثا ولا سما ، وإنما يحمل المرح والشعور بالابتهاج[٥] .

وعليه، فالدعابة ابتسام فى وقار وتحفظ، بينما المزاح ابتسام فى تجرؤ وإصرار.

١- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٤ .
٢- الفكاهة فى مصر/١٤ .
٣- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج١٣١/١ بتصرف يسير.- وانظر: السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٢٢.
٤- لسان العرب، ج٥٩٣/٢، مادة "مزح".
٥- الفكاهة فى مصر/١٤ .

الهزل:

من ألفاظ السخرية الهزل، وهو نقيض الجد، من الفعل: هزل يهزل هزلا وهزل الرجل فى الأمر: لم يجد فيه، وقول هزل: هذاء، وفى التنزيل: "وما هو بالهزل" [١] قال ثعلب: أى ، ليس بهزيان، وفى التهذيب : أي، ما هو باللعب، وقال ابن الأعرابي: الهزل: استرخاء الكلام وتفنينه[٢].

وقد عرفه بعض النقاد بأنه : مبالغة الشخص فى مغالطاته دون أن يعتمد على شخص آخر يجرى عليه هذه المغالطات ، واستغراقه فى ذلك حتى يخرج إلى حيث لا منطقية خالصة[٣].

فالإنسان الهازل يتكلم بصورة من ألغى عقله ومنطقيته، وسار يتخبط يمينا وشمالا، فتراه يسوق بدهيات فى صورة معلومات خطيرة ، أو يخلط فى كلامه، وكأنه غافل أو نائم وكتاب "نزهة النفوس ومضحك العبوس" لابن سودون المملوكي[٤] خير مثال على ذلك.

- وقد دافع البعض عن الهزل ، زاعمين أن من لم يعرف الهزل لم يعرف الجد وأن النفس إن لم تذق فرح الهزل أصابها غم الجد وكربه، فللهزل أثره الإيجابى فى صحة النفس ، وجودة العقل ، وصفاء الذهن ، وغزارة الفكر، فالهزل غذاء ودواء[٥] .
- وقد فرق السكاكى بين المزاح والهزل بقوله : "إن الهزل يقتضى تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه ، والمزاح لا يقتضى ذلك ، ألا ترى أن الملك يمازح خدمه وإن لم يتواضع لهم تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه" [٦] .

١- سورة الطارق، آية ١٤ .
٢- لسان العرب، ج١١/ ٦٩٦ .
٣- الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/١٤ .
٤- هو نور الدين أبو الحسن على بن سودون، ولد فى القاهرة سنة ٨١٠هـ، ونشأ بها، ثم برع فى الأدب، وكان غاية فى المجون والهزل، وتوفى بدمشق فى رجب سنة ٨٦٨هـ (الأعلام، ج٥/١٠٥).
٥- راجع الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٢٧٩، ٢٨٠ .
٦- الفروق اللغوية/٢١١ .

وبعد، فهذه هى أهم ألفاظ السخرية فى اللغة العربية، وهى الأكثر شيوعا على ألسنة الأدباء والشعراء، وإن كنا نلحظ من خلال ما تقدم أمرين:

- **الأول:** أن المعاجم العربية لم تشر إلى فروق واضحة مميزة لمعنى كل من السخرية والتهكم، والاستهزاء، حيث جاء كل لفظ منها بمعنى الآخر، وقد حاولت – قدر استطاعتى – إيجاد نوع من التمييز بين معانى هذه الكلمات معتمدا فى ذلك على بعض الشذرات اليسيرة التى قد توحى بها حروف الكلمة" ومعانى بعض مفرداتها المختلفة.

فالسخرية – مثلا – نقد فى هدوء وسهولة وغموض، والتهكم: نقد وهدم فى تهجم وفجاجة وعدم خفاء، والاستهزاء: فيه تحريك ونقد من غير عنف ومن غير تكسير.

والأمر الثاني: أن لفظ "السخرية" هو أقرب الألفاظ وألصقها صلة بموضوع البحث؛ لأن من معانى السخرية "التذليل" والأديب الساخر يحاول ما استطاع أن يخضع خصمه لسلطانه ، حتى يتثنى له أن يشفى صدره منه، وأن ينتقم منه بسلاح السخرية ؛ انتصارا لنفسه المتعبة المكدودة.

وكذلك فإن من حروف المبنى فى كلمة "السخرية" السين، والخاء، وهما يدلان على اللين والطراوة والخبث والدهاء، وهو ما يتفق مع المعنى العام للكلمة ومع المقصود منها.

أهداف السخرية ومقاصدها:

- السخرية فن أدبى رفيع ، له أهداف ومقاصد يحاول – بشتى الوسائل – أن يحققها ، وهذه الأهداف والمقاصد تتفرع وتتشعب ، وإن كانت كلها فى النهاية تومئ إلى غاية واحدة ، وإلى مقصد إنسانى عام.
- وقد أشار بعض النقاد والباحثين إلى بعض الأهداف والغايات التى يتغياها فن السخرية ، ويحاول تحقيقها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ولعل من أهم هذه الأهداف والمقاصد ما يلي:

(١) الرغبة فى إصلاح المجتمع وتطويره:

- إصلاح المجتمع ، والعمل على تطويره أمر مهم، وقد حمل فن السخرية منذ بداياته الأولى هذه الغاية على عاتقه، فهو يهدف فيما يهدف إلى "إصلاح المجتمع وتطويره من خلال إثارة الضحكات أو الابتسامات على أقل تقدير وذلك باستخدام أية أداة متاحة" [١] .

هذا، ومن المعروف أن "السخرية تملك من المرونة ما يجعلها قادرة على استخدام أى شكل من الأشكال الأدبية بل والفنية ، فهى يمكن أن تتراوح بين قمة الجدية، وقاع الهزل من خلال أساليب وزوايا لا تحصى" [٢] .

فالسخرية حرب على كل المظاهر المخالفة للتطور فى المجتمع، فهى تهدف كما يقال الدكتور حامد الهوال إلى "تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التى تجانب التطور، وتناهض الحركة نحو المستقبل، فإذا ما وقعت على إحدى هذه الظواهر كالبلادة أو الخمول أو الغفلة، أو كل ما يهدد الحياة بالتوقف أو البطء أو كل ما تحس أن فيه إعراضا عن الحياة، أو عجزا عن التلاؤم معها، أخذت نفسها ضده، وجمعت أسلحتها لتنقض عليه، إذا لم يكن بد من أن تكون قاسية معه" [٣] .

- وفى إطار العمل على إصلاح المجتمع، قد تهدف السخرية إلى "تقويم الحكام وهدايتهم سواء السبيل، أو تقويم المجتمع وعلاج أمراضه، أو الثأر من الأقوياء والجبارين ؛ لأن الناس لا يستطيعون – أحيانا – أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب

١- الأدب الساخر، د٠ نبيل راغب/١٩ ٠

٢- الأدب الساخر، د٠ نبيل راغب/١٩ والجمع بين حرفى العطف(بل، والواو) الوارد فى هذا النص خطأ لغوي، والصواب: عدم ذكر الواو٠

٣- السخرية فى أدب المازنى /٣٠ ٠

obeikandl.com

الجدى؛ مخافة البطش أو التنكيل والعقاب، فيلجئون إلى أسلوب السخرية؛ لأنه مأمون العاقبة" [١].

والحق أن السخرية فى إطار إصلاح المجتمع ، تتسع حلقاتها ومستوياتها حتى تشمل المستوى السياسي، والمستوى الاجتماعى ، والمستوى الأخلاقى ، والمستوى الجمالي.

وهى فى خوضها هذه المجالات تختلف فى لهجتها ومنهجها عن كل أساليب التعبير الأخرى التى تهدف إلى الرفض أو الشجب أو التقليل من شأن الموضوع المطروح لسهام الكاتب أو المتحدث[٢] .

فهى تعنى "إنزال نوع من العقاب على كل من تغاير طبيعته طبيعة المجتمع وواقع الحياة" [٣] .

لأنها فى الأصل "بمثابة عقاب وقصاص وتأديب ينتقم بها المجتمع ممن يتطاولون على منطقه ومعقوله" [٤].

والسخرية بذلك تعد مرآة لحالة المجتمع،والأدباء الساخرون هم لسان الأمة الناطق الساخر من عيوبها التى ترزح الأمة تحتها.

٢ـ نقد الواقع المتردى:

الواقع الذى يعيشه الإنسان ويألفه، هو عبارة عن منظومة تجمع تجاربه فى الماضي، ولذا فإن أى اعتداء على هذا الواقع يحدث ألما فى نفس الإنسان الحساس فيحاول أن يتصدى لمصدر هذا الاعتداء بالنقد والسخرية، والإنسان عندما يفعل ذلك "فإنه يأبى على الحياة أن تعود إلى الوراء، أو تقف عن التقدم، فيتجمد معها الأحياء، إنه يحس بالخطأ الذى يقع فيه التناقض فيواجهه بالضحك عليه والسخرية منه، ويتخذ من ذلك مادته

١- الفكاهة فى الأدب ، د. الحوفى ج٢/٩٣ .
٢- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٣ .
٣- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/١٩ .
٤- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٣ ، وكلمة: "مثابة" الواردة فى النص خطأ لغوي، والصواب "بمنزلة"

obeikandl.com

لنقده، وقد يكون نقدا لاذعا، ولكنه بخفته الساخرة قادر على ألا يثير رد فعل مضاد، فينتصر الإنسان على التناقض، ويقضى على الخطأ" [١].

ومع ذلك فقد يتعمد الأديب الساخر "أن يوقع بعض الأشخاص أو الجماعات أو بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية فى حرج مقصود، ولكن ليدفع بذلك حرجا أكبر عن الجماهير، ويرد خطرا قائما على المجتمع أو متوقعا، مما يعتبر عملا إنسانيا شريفا وساميا"[٢].

وهنا يبدو لنا بوضوح ما يقوم به فن السخرية من نقد للواقع ، وذلك عندما يقوم بمهاجمة الوضع الراهن فى الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير، وبالطبع فإن هذا الوضع الراهن لابد من أن يكون محصلة لممارسات عدة خاطئة سابقة، مما ينذر بأخطار ينبغى التحذير منها،ويكون الأدب الساخر أو الفن الساخر عموما إحدى علامات هذا التحذير"[٣].

- ولذلك يشير الدكتور نعمان طه إلى أن غرض الساخر من سخريته: هو النقد أولا والإضحاك ثانيا[٤] .

وليست بالضرورة كل سخرية تكون مثيرة للضحك؛ لأنها يمكن أن تكون مرة وذلك عندما تهاجم الجانب المتجهم من المجتمع، وربما أثارت ابتسامة المتلقي لكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة فى المجتمع[٥] .

فنقد الواقع بما فيه من سلبيات وأخلاقيات مخالفة للنظام السائد فى المجتمع هدف من أهداف السخرية التى تهدف إليها، وذلك فى إطار الرغبة الأكيدة فى خلق مجتمع مثالى فاضل.

١- السخرية فى أدب المازني/٣١ .
٢- المصدر السابق/٨.
٣- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٢ .
٤- السخرية فى الأدب العربي/١٤.
٥- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢١ .

٣ـ الإضحاك:

تهدف السخرية – فيما تهدف – إلى إثارة جو من الضحك والبهجة فى الأسلوب مما يؤكد على دورها فى تجديد النشاط النفسي، والترويح الجماعي، ونشر التفاؤل بالمستقبل٠

وهذا الضحك ليس فوضى كما قد يتخيل بعض الناس ، ولكنه ضحك بنظام وهدف، لذلك يمكننا "أن نعتبر ذلك فى الواقع أسلوبا مجديا من أساليب السخرية أو فنا من فنونها ذات القدرة العجيبة" (١) ٠

ولعل الارتباط القائم بين البهجة (الضحك) والسخرية والارتباك مما يؤكد ذلك ويدعمه(٢)٠

والواقع أن "السخرية تعمل بذكاء لتحويل الشيء أو المنظر الذى ترصده إلى صورة دميمة، لتسقطه فى النهاية من عالم المثل، ومن حسابات الجمال الذى قد يكون فى كثير من الأحيان واقعا تحت وهم الاتصاف بها، فيبدو مثيرا للضحك"(٣)٠

- ومما تجدر الإشارة إليه، أن نذكر أن "السخرية ليست بالضرورة مثيرة للضحك؛ لأنها يمكن أن تكون مرة ، خاصة عندما تهاجم الجانب المتجهم من المجتمع، وربما أثارت ابتسامة المتلقى ، لكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة للمجتمع ، وهذا ليس أمرا غريبا، فليست كل ابتسامة تعنى السعادة والانشراح" (٤) ٠

وليس كل شاعر بمستطيع أن يثير ضحكات الجماهير؛ لأن "أسلوب الإضحاك يحتاج إلى مهارة فائقة من الشاعر، وبراعة غير معتادة فى فهم نفسية المهجو (المسخور منه) ، وما يتفق مع صوره من ألفاظ تساعد على إبراز ما يرمى إليه" (٥) .

١- السخرية فى أدب المازنى ، د٠حامد الهوال/٣٦ ٠
٢- راجع: الفكاهة والضحك، د٠شاكر عبد الحميد/١٩ ٠
٣- السخرية فى أدب المازني/٣٦ ٠
٤- الأدب الساخر/٢١ ٠
٥- الهجاء الجاهلى صورة وأساليبه الفنية، د٠عباس عجلان/٣٢٢، ط/دار المعارف ١٩٨٢م٠

إذن، فالإضحاك عنصر من العناصر التى تهدف إليها السخرية، ولكنه الإضحاك الهادف المفيد الذى يبنى ولا يهدم.

مقومات السخرية:

- ليست السخرية أمرا سهلا يرتاده كل راغب ، ولكنها فن شائك يحتاج إلى خبرة ودراية بظروف الحياة وأحوال الناس فيها، إذ لابد أن تتوفر فى الساخر صفات ومقومات هى له بمثابة الأجنحة التى تمكنه من الطيران فى أجواء السخرية والتهكم بحرية وطلاقة.

ويمكننا أن نشير باختصار شديد إلى أهم هذه المقومات فيما يلي:

١.المجانة وقلة المبالاة:

- المجانة : معناها ألا يبالى الإنسان بما صنع ولا بما قيل له[1] .
- ونحن عندما ننظر إلى السخرية، نجد أنها ترتبط فى جوهرها بالمجانة وقلة الاستحياء، وعدم المبالاة.
- فالأديب الساخر ينبغى أن تنطوى نفسه على شئ من المجانة، حتى لو لم يكن ذلك معروفا عنه فى الظاهر، لأنه لو لم يكن ماجنا، أو لم تتوفر لديه عناصر اللامبالاة ، لما استطاع أن يلج فن السخرية، أو يرمى فيه بسهم، ولما استطاع أن يوفر للسامع عناصر الإضحاك والتندر الذى يريده بالغير.

"ولقد عد" آدلر" المجانة – حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التى تتركب منها – عاطفة تتركب من : الزهو، والمنافسة، والغرور والاعتداء، فقال: المجانة أساسها – على الأرجح – الانفعال المسمى بالزهو مقترنا بالاعتداد بالذات، ولا نزاع فى أننا نحس أننا أسمى من الشخص الذى يثير فينا المجون ، وإن كان عنصر الدهش أيضا عاملا من العوامل التى تبعث على الضحك والمزاح ، كما تنطوى المجانة على عنصر المنافسة

١- لسان العرب، ج١٣/٤٠٠ .

وأدخل ما تكون النكتة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا، ونتفوق بها على أهل مودتنا" [١].

فالزهو والاعتداد بالنفس ينبعان من قوة الأعصاب، وقوة الأعصاب أمر ضرورى ينبغى أن يكون متوفرا فى الأديب الساخر حتى يكون بمنأى عن الانفعال والتوتر، لأن الانفعال والتوتر ينافيان اللامبالاة.

ولذلك تحاول السخرية "أن تتخلص من الانفعال فى الظاهر، فتبدو كأنها لا تنبعث عن عاطفة ما عند قائلها، لأنها تخاطب العقل، وتسعى إلى أن يكون الجو حولها مشبعا بالإدراك والوعي، حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع، لتسلط ضوءا أكثر سرعة على الأشياء التى لا تناسب الحياة ، والتى يمكن أن نصفها بأنها لا تليق بالفرد أو الجماعة ، وهى عندما تسلط هذا الضوء السريع تخدم فكرة عميقة ولكنها تريد أن تكون عابرة، حتى يمضى كل شيء فى خفة ونشاط" [٢] .

٢.الذكاء والدهاء:

- الذكاء: هو حدة الفؤاد وسرعة الفطنة، والدهاء: هو جودة الرأى والبصر بالأمور[٣] وهما من الأمور التى ينبغى توفرها فى الأديب الساخر، إذ "لابد له من أن يكون على قدر كبير من الذكاء ، وقوة المخيلة، أو الخيال الهازل الذى يمكنه من اقتناص أو ابتداع الصور النادرة التى يستطيع بها إغاظة خصمه من جهة، وإضحاك نفسه والناس منه من جهة أخرى" [٤].

فالسخرية تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر والدهاء، لأنها أداة راقية ويحتاج العمل بها إلى جهد كبير[٥] ، ولولا اشتمالها على ذلك، لما كانت مثارا للضحك.

١- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه /١٩ .
٢- السخرية فى أدب المازنى ، د.حامد الهوال/١٦، ١٧ .
٣- ينظر:لسان العرب ، ج١٤/٢٨٧، ٢٧٥ .
٤- السخرية فى الأدب العربي/١٩ .
٥- راجع الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/١٣ .

هذا، وذكاء الإنسان الساخر ودهاؤه يكمن فى خبرته بالمجتمع، ودرايته بأحواله ومعرفته بكل تطوراته، وتسجيله السريع لكل المواقف والمشاهدات التى تعد شذوذا على نظام المجتمع فى ذكاء وحسن تصوير، ثم توجيه النقد إليها فى خفة وسرعة وخفاء ودهاء.

"والإنسان الساخر إنسان نشيط وعبقرى، ومعتز بحياته، وأخ للأحياء أمثاله، وهذا الانتماء الواعى يكسبه قوة كبيرة، وقدرة خلاقة على منح الحياة كل اهتماماته، وكل إمكانياته على النقد والمعارضة والمقاومة والكفاح، فهو إنسان ثورى التكوين فى الواقع وإن لم يستخدم أسلحة الحرب التقليدية المعروفة، فإن سلاحه الموهبة والقدرة الغلابة على مواجهة النقائض والنقائص، والتعرف على عناصر الانحراف فيها، وعلى صياغة الأساليب المناسبة لكشفها وإبرازها ووضعها فى الضوء العام لتكون هدفا لأكثر من عين ونقطة التقاء كل اهتمام" [1].

والإنسان الساخر إذا قل نصيبه من الذكاء والدهاء، قل نصيبه من قوة الحجة والدفاع عن النفس أمام الغير، وبذلك يشعر بكثير من الضيق والألم والاشمئزاز.

٣.الجلد وقوة النفس:

الجلد: هو القوة والشدة والصبر والصلابة[2].

والجلد وقوة النفس مقوم مهم من مقومات السخرية، وهو يعنى :امتلاك الإنسان لنفسه عند الغضب، أو عند إغاظة الغير له بأى شكل من الأشكال، وبذلك يتعالى الإنسان ويترفع عن مواقف الضعف الإنسانى الذى يعترى غيره من الناس فيندفع إلى السب أو الضرب أو الدخول فى معركة بالأيدى والأرجل، وهذه "طريقة بدائية بسيطة تشعر وتدل على انهيار الشخص النفسى لما حدث له من خصمه، أما الساخر الجلد – الذى يملك نفسه

١- السخرية فى أدب المازني/٣٢- ٣٢ .
٢- لسان العرب، ج١٢٥/٣ .

عند الغضب كما قال الحديث الشريف – [1] فيضحك منه لإشعاره بأنه أقل من أن يفعل به ما يسبب إيلامه.

ولذلك تمدح العرب قديما بالتجلد كما قال الشاعر:

وتجلـــــدى للـــــشامتين أريهـــــم أنـى لريـب الـدهر لا أتضعـضع[2]

ولذلك وصلت قوة أعصاب"برناردشو"وكبرياؤه إلى أنه كان يتحدى الموت وأنه كان يقول :لن أموت قبل أن أبلغ المائة من عمري! ظنا منه أن بسلامة أعصابه – التى كان يريحها أولا فأولا بالتنفيس عن نفسه بسلاحه الرهيب ، وهو السخرية– يستطيع أن يحتفظ بصحته وبنشاطه حتى يبلغ من عمره المائة عام"[3].

من هنا ندرك أن الجلد وقوة الأعصاب، من المقومات الضرورية فى شخصية الإنسان الساخر، لأن استخدامه سلاح السخرية يقتضى منه ذلك، وإلا استوى مع غيره من الذين يستخدمون الأسلحة البدائية من مثل السب أو الضرب بالأيدى والأرجل.

٤.الميل الفطرى إلى الدعابة والمرح:

الدعابة والمرح من الصفات الأساسية التى ينبغى أن يتحلى بها الأديب الساخر وهى نوع من الظرف والذكاء البارع الذى يجعل الأديب الساخر ذا قدرة بارعة على استثارة الضحك أو الابتسام لدى الآخرين ، من خلال بعض الملاحظات أو التعليقات التى تكشف رشاقة فى التعبير، وبراعة وسرعة فى الإدراك للمتناقضات، والجمع بينها فى تعبيرات تثير الابتسام والضحك[4] .

١- ينظر الحديث فى صحيح مسلم، شرح النووي، ج١٦/١٦١، ط/دار الريان للتراث ١٩٨٧م.
٢- انظر: شرح المفضليات، للتبريزي، ت:محمد على البجاوى، القسم الثالث- ص ١٤٠٨ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة، والبيت لأبى ذؤيب الهذلى "الكامل التام".
٣- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٢٠ .
٤- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٤ .

والاتصاف بالدعابة والمرح ليس من الأمور التى يسهل على الإنسان أن يتصف بها؛ لأنها من الأمور الفطرية التى يولد الإنسان مجبولا عليها،فيتحقق له بذلك أن يكون ساخرا حقيقيا؛ لأن "الفكاهة والسخرية صفتان لا تكتسبان ولا يبرزان فى الإنسان إلا إذا كان هناك طبع موات، وموهبة فطرية فى هذا المجال" [١].

هكذا ينبغى للأديب الساخر أن يكون مطبوعا على الدعابة والمرح، والفكاهة والسخرية منذ نعومة أظفاره، إلى جانب ما سبق من مقومات لفن السخرية.

ولقد كان المصريون – وما زالوا – من أكثر الشعوب ميلا إلى الفكاهة والتندر والضحك، وخاصة فيما يتصل بالنكت وخفة الروح[٢] .

لذا يقول "ثيوكريتاس" الشاعر اليونانى الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد واصفا المصريين: إنهم شعب ماكر، لاذع القول، روحه مرحه[٣] .

فالقول اللاذع هو السخرية من الأوضاع المقلوبة، وهى مبنية على المكر والدهاء وكلاهما ينبغى أن يكون ممزوجا بالمرح والدعابة والابتسام.

"ولاشك أن عناصر الفكاهة والمرح والسخرية والتهكم فى الشخصية المصرية دليل على الذكاء واللماحية، ورهافة الحس، والشعور والذوق، وسرعة البديهة وحضور الذهن والقدرة على اللعب بالألفاظ، واستخراج ما فيها من معان ماكرة وأفكار خبيثة عن طريق التورية" [٤] .

وبعد، فهذه هى أهم المقومات التى ينبغى للأديب الساخر أن يكون مطبوعا عليها حتى يكون ساخرا حقيقيا تنقاد له الآذان.

١- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد ١٤/٣٥٦ .
٢- راجع: الفكاهة فى مصر/١٧ .
٣- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب /١٠٥ .
٤- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٠٧ .

أساليب السخرية وتطورها عبر العصور الأدبية:

فى الحقيقة، إن خيال الأديب الساخر خيال ذو مرونة وطواعية، فالأديب الساخر يسلك مع الشخص المسخور منه شتى الطرق حتى يصل إلى السخرية منه والعبث به.

وهو لأجل ذلك يستخدم وسائل وأساليب متعددة، وطرق مختلفة، مضفيا عليها من روحه وخياله ما يزيد من فاعليتها وتأثيرها.

وهذه الوسائل والأساليب – على حد علمى – لا يمكن حصرها؛ لأنها خاضعة لفكر الإنسان وخياله، وهما ليسا محصورين.

والواقع "أن السخرية تعبير حر فيه انطلاق، وفيه قدرة على الصياغة واختيار ما يؤدى إلى الغرض ، فليس هناك ضوابط حتمية للأسلوب الساخر إلا بما يثيره هو بمجموعه" [1] .

ومع ذلك، فقد لاحظ الباحثون – من خلال البحث والاستقراء – أن هناك عدة أساليب شائعة على الألسنة، قد اصطلح الناس على أنها أساليب ووسائل للسخرية.

وفيما يلى عرض لأشهر هذه الوسائل والأساليب:

١.السخرية بالمحاكاة:

المحاكاة: هى المشابهة، وأكثر ما يستعمل لفظ المحاكاة فى القبيح لذا جاء **فى الحديث:** ما سرنى أنى حكيت إنسانا وأن لى كذا وكذا، أى فعلت مثل فعله"[2] وفى المحاكاة يقوم الشخص (الحاكى أو الساخر) بتقليد الشخص (المحكى عنه أو المسخور منه) فى أسلوبه أو فى صوته أو فى حركاته، مدخلا على فعله هذا نوعا من

١- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٤٠ .
٢- ينظر : لسان العرب، ج١٤/ ١٩١ .

النقد الساخر الذى يدعو المتلقى إلى الابتسام بجانب دعوته إلى التفكير فى تجنب ما يشير إليه هذا النقد.

"ويتوصل – المقلد – إلى هذه الغاية من خلال المبالغة فى بعض الخصائص أو السمات، وباستخدام الأسلوب نفسه تقريبا الذى يقوم على أساسه فن الكاريكاتير وبوصفها أحد أنواع السخرية: تهدف المحاكاة التهكمية إلى أن تقوم بالوظيفة التصحيحية والوظيفة التهكمية الساخرة فى الوقت نفسه" [١].

ويبدو أن السخرية عن طريق المحاكاة أسلوب قديم فى تاريخ البشر، لذا يقول بعض الباحثين: "أول صور السخرية وأقدمها فى تاريخ البشر، وأكثرها انتشارا بين العامة هى السخرية "بالمحاكاة" فى الكلام والمشى والحركات الجسمية، وأنوع السلوك المختلفة،أى فى السمات البارزة التى تميز شخصية ما من الشخصيات"[٢].

- وهذا موجود – أيضا – فى محاكاة المصريين القدماء التهكمية لبعض السياسيين فى تلك الرسوم التى وجدت فى المعابد على هيئة صور تحاكى الحيوانات وهى تسلك مسالك البشر[٣] .
- وقد يمتاز كاتب أو خطيب أو شاعر بأسلوب ما، ثم يأتى آخر فيقلده ويمسخه ويحول معانيه الجادة إلى معان هزلية مضحكة.

وهذا اللون كثير فى أدبنا العربي، ويعرف بالمعارضات.

- ومنه على سبيل المثال معارضة حسين شفيق المصري[٤] لابن الفارض[٥] فى قصيدته التى مطلعها:

١- الفكاهة والضحك ، د. شاكر عبد الحميد/٤٧ .

٢- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٧ .

٣- راجع:الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٤٧ .

٤- ولد حسين شفيق المصرى فى القاهرة سنة ١٨٨٣م لأبوين تركيين، وكانت كتاباته صورة دقيقة للحياة السياسية والاجتماعية بمصر، توفى عام ١٩٤٨م بحى السيدة زينب ، ينظر: الأعلام، الزركلى ج٢/٢٣٩

٥- هو أبو حفص عمر بن أبى الحسن بن المرشد بن على الحموى الأصل، المصرى المولد والدار والوفاة، ولد بالقاهرة عام ٥٧٦هـ ، وتوفى بها عام ٦٣٢هـ، ودفن فى سفح الجبل المقطم تحت المسجد المعروف بابن الفارض. ينظر فى الترجمة: وفيات الأعيان، لابن خلكان ، ج٣/٤٥٤، ت/إحسان عباس، دار صادر – بيروت.

سائق الأظعان يطوى البيد طى منعما عرج على كثبان طى[1]

فقال حسين شفيق المصرى يعارضها ويحاكيها محولا معانيها الجادة إلى هزل وضحك[2]:

وإذا لاقيت من أهواه قل للذى أهواه من يهواك جى

إننى اشتقت إليه وأرى من هواه النار تشوى القلب شى

فى فؤادى لحبيبى عزبة زرعت شوقا وفيها الدمع رى

ولعل السبب فى أن التقليد يكون مدعاة للسخرية ، هو أن الساخر المقلد ينقل شخصية المقلد برمتها، ويجعلها رداءا له يلبسه، ويتماجن به كيفما يشاء، فكأنما هو يمسخه[3] .

وهكذا تعد المحاكاة لونا من ألوان السخرية، وأسلوبا قديما من أساليبها الشائعة.

٢ـ المناداة بالألقاب:

المناداة بالألقاب أسلوب قديم من أساليب السخرية، ولعله من أقدم الصور السهلة الساذجة فى السخرية، وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كألقاب، كقولهم للسمين: "يا درفيل"، ثم استعمال هذا اللقب فيما بعد اسما يطلق على هذه الشخصية ، وتعرف به.

وكذلك، استعمال الصفات المعكوسة، وهى عكس ما يتصف به الشخص حقيقة كألقاب ، ثم أسماء تتكرر كثيرا فى صور منوعة، ومناسبات مختلفة ، حتى يلصق هذا

١- ديوان ابن الفارض، لابن الفارض/٣، مكتبة القاهرة، مطبعة حجازى١٩٥١م والأظعان: جمع ظعينة، وهى الهودج، يطوى: مضارع طوى الأرض إذا قطعها، طى الأولى: مصدر طوى يطوى. منعما: اسم فاعل من أنعم عليه، بمعنى تفضل عليه عرج: مل. والكثبان : جمع كثيب، وهو التل من الرمل. طى الثانية: اسم لأبى قبيلة من العرب، "الرمل التام".

٢- انظر الأبيات في: طرائف العرب ونوادرهم، محمد رضوان /٢٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م، "الرمل التام".

٣- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٧ .

الاسم بهذه الشخصية، كإطلاق صفة "**الهزيلة النحيفة**" على البدينة "والسبع أفندي" على النحيف.

ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة الهزء بإدخال عنصر الغرابة كاستعمال "**مد موازيل**" للعجوز الطاعنة فى السن، وكذلك استعمال أسماء الرذائل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة، كإطلاق "الشيخ متلوف" هزءا وسخرية – على الفاسد، وإطلاق الأمين على اللص.

- ونحن لا نشعر بجرس السخرية من أحرف الكلمات فحسب ، بل من الجو المحيط بها، ونعنى به الجو الاجتماعى الذى يفهمه السامع أو القارئ [1].
- إذن، فالسخرية عن طريق إطلاق ألقاب معينة على أشخاص لا يتصفون بها لون شائع ومستعمل ، وجار على كثير من الألسنة فى كل العصور.

٣- السخرية عن طريق الصوت والحركة:

السخرية عن طريق تلوين الصوت، وتنويع الحركات، لون قديم من ألوان السخرية.

- ويعتقد البعض أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية، ولكن لا يمكن إثبات ذلك؛ نظرا لأنه لا يسجل على الورق كتابة، ولا على الحجر نقشا [2].
- والسخرية عن طريق الصوت تتحقق بالتلوين فيه، من نحو الرفع والخفض، أو إعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالبا، ويعرف صفتها ومغزاها الذى يمكن أن ينقله القلم إلى الورق.
- كما تتحقق السخرية عن طريق الحركات بتحريك عضلات الوجه، وانفراج أساريره، أو بهز الرأس ، أو الكتفين ، أو بالغمز بالعين، أو بالإشارة باليدين معا فى وجه إنسان ما برفعهما وخفضهما سخرية من حماقة ارتكبها أو جرم وقع فيه.

١- راجع السخرية فى الأدب العربي، د.نعمان طه/٣٧، ٣٨ .
٢- راجع: المصدر السابق/٣٨ .

- وقد تكون السخرية من الشخص عن طريق النظر إليه، ثم تأخذ فى إدامة النظر إليه، وأنت تبتسم ابتسامة السخرية، أو تضحك ضحكة السخرية[١].
- والضحك – كما يشير بعض الباحثين – تعبير مسموع يرتبط بانفعال معين خاصة البهجة والسخرية والارتباك [٢].

فالنظر إلى شخص ما، وإدامة النظر إليه مع الابتسام أو الضحك يعطى دلالات مختلفة، ومعانى شتى، إذ هناك ضحك السرور والفرح، وضحك السخرية والازدراء، وضحك الشماتة والعداوة [٣] .

وكما قلت – من قبل – إن الجو المحيط ، أو الجو الاجتماعى الذى يفهمه السامع أو القارئ هو الذى يدل على المعنى المقصود ويشى به.

٤ـ السخرية عن طريق التحامق:

- الحمق – كما ورد فى لسان العرب- ضد العقل ، والتحامق: هو وضع الشئ فى غير موضعه مع العلم بقبحه[٤]

والحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت، فكأنه كاسد العقل والرأى فلا يشاور ولا يلتفت إليه، وإنما سميت البقلة الحمقاء؛ لأنها تنبت فى سبيل الماء وطريق الإبل وسمى الرجل أحمق، لأنه لا يميز كلامه من رعونته[٥] .

فالحمق: هو مجموعة من السلوكيات أو الأقوال أو الأفعال التى تدل على الغفلة أو الذهول أو عدم إدراك العواقب ، ومن ثم فهى تثير الشعور بالدهشة، وكذلك الضحك[٦] .

والتحامق: هو إظهار الحماقة والبلاهة والغفلة.

١- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٨ .
٢- انظر: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/١٩ .
٣- راجع: المصدر السابق/ ١٩، ٢٠ .
٤- لسان العرب، ج١٠/٦٧، ٦٨ ، مادة "حمق".
٥- راجع : أخبار الحمقى و المغفلين ، لابن الجوزى /١٧، مكتبة ابن سينا للنشر و التوزيع – القاهرة .
٦- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد /٥٥ .

obeikandl.com

- **وجدير بالذكر، أن نقول:** إن ظاهرة التحامق وإظهار الغفلة ظاهرة عالمية، وقد نبتت لها جذور عريقة فى أدبنا العربى القديم، كذلك فإنها كانت موجودة دائما عبر التاريخ فى بلاط الملوك، وفى ساحات الملاعب، والأسواق[١] .

والحق، أن الإنسان عندما يتأمل فى ظاهرة التحامق، يجد فيها من الصواب "ما ينبئ عن حدة ذهن، ودقة فهم، وجودة حدس.

فلقد وجد الناس فى ذلك ضروبا من الفائدة، فكانوا يلجأون إليه كلما ضاق عليهم الأمر، وعسرت أمامهم المسالك، فينالون ما يشتهون، ويحظون بما يحبون" [٢] .

- ويذكر بعض النقاد أن للتحامق والتغافل أسبابا شتى: منها التقية وستر ما بالنفس؛ فرارا من العقاب أو الاضطهاد أو التهمة، ومنها السخرية من الناس إذ لا يروقهم العقل، وصواب الرأى ، فيكافئهم العاقل بمجازاتهم فى نقص عقولهم فيتغافل .... ومنها رغبة الشخص العاقل فى أن يفكه الناس، أو يتقرب إليهم، وينال عونهم وعطاءهم[٣].
- ومن بواعث الضحك فى الغفلة أن يتحدث المغفل حديثا يظن به أنه يقرر حقيقة أو يفيد جديدا، فإذا بحديثه بديهة عامة ليست محتاجة إلى قول ، أو يتحدث حديثا لا يلائم الحالة التى يتحدث فيها، وكلما كان الحديث بعيدا عن الملائمة ، وأدل على الغفلة، كان أبعث على الضحك أو إثارة الضحك[٤] .

فهؤلاء المتحامقون والمتغافلون يقومون بإصدار سلوكيات معينة تغرينا بالضحك وتدهش مشاعرنا "إنهم بشر بطبيعة الحال، لكن مظهرهم الخارجى يكون غريبا، وكذلك سلوكهم، وغالبا ما يكونون فى حالة من الغفلة، والشرود الذهني، وأحيانا ما يكون مظهرهم

١- الفكاهة والضحك، د٠ شاكر عبد الحميد/٥٥ ٠
٢- مجلة الدوحة / ١٠٩، سبتمبر ١٩٨٥م٠
٣- انظر: الفكاهة فى الأدب ، د٠الحوفي، ج٢٣/١ ٠
٤- الفكاهة فى الأدب، د٠ الحوفي، ج٢٦/١ بتصرف يسير٠

ممسوخا على نحو واضح، إنهم ينتهكون النظام الاجتماعى القائم، ويتجاوزون معاييره ومن ثم يحدثون الضحك" [١].

والتحامق والتباله من ألوان السخرية الشائعة التى أثرت عن سقراط[٢] ووجد فيها الراحة.

ولأن من يتحامق يريح ويستريح ، فقد سئل زيد بن سعيد العبدى عن تحامقه فقال: "جددت فشقيت، ثم تحامقت فأرحت واسترحت" [٣] .

ورد الحمدونى الشاعر على من لاموه على حمقه بقوله: "حماقة تعولني، خير من عقل أعوله" [٤] .

٥ـ السخرية عن طريق القلب والعكس:

عندما تجرى الأمور فى مسارها الطبيعي، وفى إطارها المألوف، فإننا لا نجد مبررا للضحك،لكن الأوضاع إذا انقلبت،وأصبحت تصدر بصورة مقلوبة أو معكوسة فإن ذلك يدفعنا إلى الضحك دفعا.

فالإنسان الذى يداعب غيره، فيحفر له حفرة عميقة ويغطيها حتى لا يراها، فإذا به هو الذى يقع فيها ، فهذا الإنسان أراد أن يخدع غيره ويمكر به، فانخدع هو وحاق به مكره السئ.

فالقلب أو العكس: هو أن يقلب المتكلم جوابا أو سؤالا لسائل، أو يأتى بعكس ما كان ينتظر أن يأتى به، أو بكلام مفاجئ غير متوقع، أو يقلب فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها، أو ليحولها إلى غرض فكاهى يسخر فيه من العيوب السائدة فى المجتمع[٥] .

أو هو باختصار: مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع [٦] .

١- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٥ .
٢- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه /٣٩ .
٣- مجلة الدوحة، ص١١٠، سبتمبر ١٩٨٥م.
٤- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج١/٢٣ .
٥- السخرية فى أدب المازني، د.حامد الهوال/٤٦ .
٦- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٤٣ .

ونحن عندما نواجه الإنسان بكلام على عكس ما يتوقع، أو بكلام مقلوب عن وضعه الطبيعى ، فإن لذلك فى نفوسنا دلالات ساخرة، ومقاصد تهكمية تفهم من خلال الجو العام للكلام٠

- ومن هذا اللون: قلب الفكرة المعروفة إلى نقيضها، أو إلى مفارقة عجيبة لم تكن تخطر على البال[١] .

وفى الشعر العربى أمثلة كثيرة تشير إلى ذلك، حين يتجه بعض الشعراء إلى قلب بعض القصائد المشهورة إلى نقيضها، أو عكس الجمل السائرة إلى ضدها عكسا هزليا٠

فنحن حين نقرأ قول أبى نواس متغزلا فى قينة اسمها "جنات" رآها بارزة إلى مأتم فى البصرة وهى تبكي[٢] :

يـــا قمـــــرا أبـــــرزه مأتـــــم ينـــدب شـــجوا بـــين أتـــراب

يبكـــى فيـــذرى الـــدر مـــن نـــرجس ويلطـــــم الـــــورد بعنـــــاب

ثم يأتى "ناصر العلوي" [٣] فيقلب هذا الكلام ويعكسه قائلا[٤] :

يـــا قـــردة أبـــصرت فـــى مـــأتم تنـــــدب شـــــجوا بتخـــــاليط

تبكـــى فتلقـــى البعـــر مـــن عينهـــا وتلطـــــم الـــــشوك ببلـــــوط

نجد أن قول ناصر العلوي، يحمل سخرية لاذعة، وقد تحقق له ذلك عن طريق قلب وعكس معانى أبى نواس بصورة هزلية تثير الضحك.

- وشبيه بهذا الضرب أن يستشهد القائل فى مقام تافه حقير بكلام قيل فى مقام جليل، لا يصح أن يستشهد به إلا فى الموقف الرائع ، فكأنه عكس المقام، واستشهد فى كل موضع بعكس ما هو له٠

١- الفكاهة فى الأدب، د٠ الحوفي، ج١٧/٢ ٠

٢- ديوان أبى نواس/٥٣، دار صادر – بيروت، "البحر السريع: عروضه مطوية مكسوفة، وضرب أصلم"

٣- تنظر ترجمته فى : الأعلام، الزركلى ، ج٢٠٠/٢ ٠

٤- الفكاهة فى الأدب، د٠ الحوفي، ج١٧/٢ ، "البحر السريع"٠

openkandil.com

- من ذلك أن سفيان بن عيينة قال: دخلت الكوفة فى يوم مطير، فإذا كناس فتح مرحاضا، ووقف على رأس البئر وهو يقول[1] :

بلـــــدة طيـــــب ويـــــوم مطـــــير هـــــذه روضـــــة وهـــــذا غـــــدير

ثم قال لصاحبه: انزل فأبى صاحبه، فنزل وهو يقول:

لم يطيقـــــوا أن ينزلـــــوا فنزلنـــــا وأخـو الحـرب مـن يطيـق النـزولا

فلو تأملنا البيت الأول، نجد أنه قيل فى الإعجاب ببلد جميل فى يوم مطير وقيل فى الإعجاب بروضتها وبغديرها، وشتان منا بين هذا وما يراه القائل.

- والبيت الثاني، قيل فى الحماسة والإسراع إلى الحرب، حيث يجبن الأعداء وإن كانوا أبطالا.

وفرق شاسع بين نزول إلى أرض المعركة والقتال ، ونزول إلى المرحاض كما يكشف معنى البيت، إذ أين هذا من ذاك ؟ !

فهذا القائل قلب الموازين ، وعكس الأمور، حين استشهد فى مقامه الحقير المهين بكلام لا يستشهد به إلا فى رائع المقامات.

- ويدخل فى هذا النوع: قلب المعنى الذى يتوقعه السامع قلبا مفاجئا لم يكن يتوقعه؛ إمعانا منه فى السخرية والاستخفاف والازدراء.

فالسامع عندما ينتظر كلاما معينا ، ثم يأتى الجواب مقلوبا على عكس ما يتوقعه، تكون الدهشة ، ويكون الابتسام المحمل بمعانى التهكم والسخرية.

وكـان القيـاس فـى البيـت الأول أن يقـال: بلـدة طيبـة، ولعـل الـشاعر لجـأ إلى هـذا التركيب لأمرين: المحافظة على الوزن العروضى ، ثم تأويل البلدة بالمكان، أي: مكان طيب حكى أبو عمرو بن العلاء عن رجل من أهل اليمن: فلان لغوب، جاءته كتابى فاحتقرها.

١- الفكاهة فى الأدب ، د. الحوفى ج٢ /١٨ نقلا عن العقد الفريد ج٣/٣٣٣ ،"الخفيف التام".

وذلك على تأويل الكتاب بالصحيفة(لسان العرب، ج١/٧٤٢)٠

- ومما يمثل به هنا: قول ابن أبى عتيق لرجل: ما اسمك؟ قال: وثاب٠

قال وما اسم كلبك؟ قال: عمرو٠ فقال: [١] .

فلـــو كـــان مـــن التوفيـــق قـــد أعطـــى أســـبابا

لـــسمى نفـــسه عمـــرا وسمـــى الكلـــب وثابـــا

وهو نقد مصيب، وله وجاهته، وإن لم يكن السامع يتوقعه عند إجابته عن السؤال الذى وجه إليه٠

- ومما يدخل تحت هذا النوع: قلب الجملة أو الفكرة ضد قائلها، فيظهر القائل الأول مناقضا لنفسه، فكأنه قال غير الذى أراد أن يقوله٠
- ومما يمثل به فى هذا الجانب قول أبى النجم[٢] حين أوصى ابنته "برة" يوم زفافها، يقول[٣] :

أوصـــيت مـــن بـــرة قلـــبا بـــرا بالكلـــب خـــيرا وبالحمـــاة شـــرا

لا تـــسأمى ضـــربا لهـــا وزجـــرا حتـــى تـــرى حلـــو الحيـــاة مـــرا

وإن كـــــستك ذهبـــــا ودرا والحـــى عمـــيهم بـــشر طـــرا

فالناظر فى مطلع كلام أبى النجم لأول وهلة، يعتقد أنه سيوصى ابنته بوصية نافعة تضمن لها حياة كريمة ، فى ظلال حياة زوجية جديدة، ولكنه ما إن يقرأ الشطر الثانى من البيت الأول، حتى يفاجأ بعكس للأوضاع، وقلب لطبيعة الأمور، حيث يوصيها بالإساءة إلى

١- الفكاهة فى الأدب،د٠الحوفي، ج٢/٢١، نقلا عن: محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهانى ج٢/٢٠٢ ، "الوافر المجزوء"، وهو يشتبه هنا ببحر الهزج؛ نظرا لدخول العصب فى بعض تفعيلاته٠

٢- هو المفضل بن قدامة بن عبيد الله بن الحارث ، من رجاز الإسلام المقدمين ، وفى الطبقة الأولى منهم، توفى عام ١٣٠هـ الموافق ٧٤٧م ٠ (ينظر فى الترجمة: الأغاني، للأصفهانى شرح أ/عيد على مهنا، ج١٠/١٨٣، ط/الثانية ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان)٠

٣- ديوان أبى النجم/١٠١،جمعه وحققه وشرحه:سجيع جميل الجبيلي،الطبعة الأولى ١٩٩٨م،"الأبيات من السريع التام"

والدة زوجها قولا وعملا، كما يوصيها بالإساءة إلى جميع أهل الحي، وفى ذلك لون من ألوان السخرية منهم، وطريق من طرق الحط من قدرهم ومكانتهم.

وقد تحقق ذلك عن طريق عكس الوصية عما كان ينبغى أن تكون عليه.

وقد يقلب المتكلم فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها، أو ليحولها إلى غرض فكاهى يسخر فيه من العيوب السائدة فى المجتمع.

- وقد كان الشيخ عامر الأنبوطى[1] مولعا بقلب القصائد الجدية إلى الهزل.

ومن قصائده فى ذلك ألفيته فى الطعام على غرار ألفية ابن مالك فى النحو والصرف، يقول فيها:

بقول عامر هو الأنبوطى ... أحمد ربى لست بالقنوط

وأستعين بالله فى ألفية ... مقاصد الأكل فيها محويه

فيها صنوف الأكل والمطاعم ... لذت لكل جائع وهائم

إلى أن يقول فيها:

طعامنا الضانى لذيذ للنهم ... لحما وسمنا خبزا فالتقم

فإنها نفيسة والأكل عم ... مطاعمنا إلى سناها القلب أم

والأصل فى الأخباز أن تقمرا ... وجوزوا التقديد إذ لا ضررا

ففى مطلع الأبيات يبدو القائل فى صورة جدية، ثم ينقلب الحال عندما يقلب الشاعر فكرة القصيدة،وينحو منحى الهزل ساخرا بذلك من كلام ابن مالك فى ألفيته.

وللشاعر حسين شفيق المصرى فى هذه الناحية باع طويل، وقدم راسخة، إذ كان مغرما بقلب القصائد الجادة إلى الهزل والضحك[2].

١- هو الشيخ عامر الأنبوطى الشافعي، شاعر هجاء، وصاحب فكاهة وسخرية، توفى عام ١١٧٣هـ، (تنظر الترجمة والأبيات فى ... تاريخ الجبرتي، ج٢٤٨/١، مطبعة حسين حسنى بك ١٢٩٧هـ)، "والأبيات من الرجز التام".

٢- راجع: طرائف العرب ونوادرهم، محمد رضوان/٢٧٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

- وهناك ألوان أخرى، تدخل ضمن القلب والعكس، ومنها:الهزل الذى يراد به الجد٠ وذلك مثل قول أبى نواس[١] :

إذا مـــا تميمـــى أتـــاك مفـــاخرا فقل عـد ودع ذا،كيـف أكلـك للـضب؟

فإذا تأملنا البيت، نجد أنه يحمل بين أعطافه سخرية مرة، لكن الشاعر عرضها فى صورة هزلية، فهو يريد أن يضع التميمى فى وقت زهوه وافتخاره بنفسه فى صورة يعافها أشراف الناس، مما لا يجعل له حقا فى الفخر٠

ويبدو أن هناك جدية من الشاعر فى وصم المهجو بالذم والعيب الفاضح، كما يتضح للقارئ مما فعله الشاعر من قلب للجو العام الذى بدأه التميمى مفتخرا مزهوا بنفسه، فكان الختام على عكس ما أراد" [٢] .

- ومما يدخل ضمن هذا النوع: المدح فى معرض الاستهزاء٠

المعروف أننا عندما نمدح إنسانا معينا، أو عملا ما ، ولا يكون هذا الإنسان أو هذا العمل مستحقا للمدح، فإن مدحنا – والحال كذلك – لا يخرج عن إرادة السخرية منه والتهكم به وإهانته ، فالحق – سبحانه – حين يقول فى أبى جهل: "ذق إنك أنت العزيز الكريم" [٣] فهذا الكلام ليس مدحا، وإنما هو سخرية وتهكم وتوبيخ وإهانة ، والمعنى: لست بعزيز ولا كريم.

ولعل مما يمثل به هنا قول ابن الرومي[٤] :

نيالـــــه مـــن عمـــل صـــالح يرفعـــــه الله إلى أســـــفل[٥]

١- ديوان أبى نواس/٩٠، دار صادر – بيروت "الطويل"٠
٢- راجع: السخرية فى أدب المازني/٤٧، "الطويل"٠
٣- سورة الدخان، آية: ٤٩ ٠
٤- هو أبو الحسن على بن العباس بن جريح، المعروف بابن الروحي، ولد فى بغداد عام ٢٢١هـ، ومات مسموما عام ٢٨٢هـ أو ٢٨٤هـ ٠ (ينظر فى الترجمة – الأعلام، الزركلى ، ج٢٩٧/٤)٠
٥- انظره فى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، النويرى، ج١٨٠/٧، وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا تسوماس وشركاه – القاهرة، "البحر الرجز"٠

فالرفع إنما يكون لأعلى، فإذا قلب الشاعر الوضع، وانعكست الآية، فهذه سخرية لاذعة، وتهكم بهذا العمل، وأنه لا يرقى لأن يكون عملا مقبولا٠

٦ـ السخرية عن طريق اللعب بالألفاظ:

السخرية عن طريق اللعب بالألفاظ، أسلوب قديم من أساليب السخرية والتهكم قدم اللغات الحية٠

وطريقته أن "يلعب السامع باللفظ الذى سمعه، فيعكسه إلى معناه الآخر معتمدا على الاشتراك المعنوى فى اللفظ الواحد، أو على الجناس ، أو الطباق بين اللفظ الذى سمعه، واللفظ الذى ينطق به، وقد يحدث تلاعب لفظى غير مراد؛ لأنه ينشأ عن خلط بين اللفظ الذى نطق به المتكلم، ولفظ آخر قريب منه توهمه السامع، وفى هذه الحالة، ربما يجئ الرد مشاكلا لذلك الخلط، فيزداد الموقف تعقدا وإضحاكا" [١] .

إذن : فأساس التلاعب اللفظي: هو محاولة المتندر أن يكسب الألفاظ معانى غير معانيها الواضحة؛ تمويها على السامع ، وسخرية به[٢] .

والتلاعب اللفظي، ليس مقتصرا على الأدب الفكاهي، أو الساخر فحسب بل إنه يتسلل إلى الأدب الجاد أيضا، وذلك من أجل إحداث إثارة فكاهية ساخرة لكن بشرط أن يكون فى حدود الأناقة، واللياقة اللفظية[٣] .

ولذلك، قل أن تخلو منه لغة من اللغات، سواء فى أدبها الجاد أو الفكاهي وكان المصريون من أكثر الأمم تعلقا وولعا به٠

فقد استخدموه باعتباره سلاحا "لمقاومة سلطات الاحتلال، وفى الوقت نفسه للهروب من بطشها، إذ يصعب إثبات المعنى الحقيقى على قائله" [٤] .

١- الفكاهة فى الأدب ، د٠ الحوفي، ج١/٥٠ وراجع: السخرية فى أدب المازني/٤١ ٠
٢- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د٠نعمان طه/٤٧ ٠
٣- راجع: الأدب الساخر، د٠ نبيل راغب/٧٧ ٠
٤- المصدر السابق/٧٨ ٠

ومعنى ذلك، أن المصريين قد وضعوا أيديهم منذ أقدم الأزمنة على هذه المفاتيح اللغوية، وما يطوى فيها من تلاعب؛ قصدا إلى الضحك والسخرية[1].

ويذكر بعض النقاد أن اللعب اللفظى – سواء أكان مقصودا أم غير مقصود- يضحك؛ "لأنه يمثل جهدا ضائعا، إذ إن حديث المتكلم ينتهى إلى نتيجة عقيمة... فكأنه عجز عن التعبير، أو كأن اللغة لم تستطع أن تعبر عما يريد، أو كأن السامع لم يحسن الاستماع والفهم ، وأى حال من هذه الأحوال نوع من التصلب المضحك" [2].

ومن أمثلة اللعب اللفظى القائم على الجناس ، ما يذكر من أن "أبان بن عبد الحميد اللاحقي" تقلد ديوان الشعر "ليحيى بن خالد البرمكي" فى عهد "الرشيد"، فكان الشعراء يرفعون إليه أشعارهم فى البرامكة، فيسقط ما يرى إسقاطه، ويعرض ما يرى عرضه، فأسقط مرة شعرا لأبى نواس فيما أسقط، فقال أبو نواس: [3].

طعامنا الضانى لذيذ للنهم ... لحما وسمنا خبزا فالتقم

فإنها نفيسة والأكل عم ... مطاعمنا إلى سناها القلب أم

والأصل فى الأخباز أن تقمرا ... وجوزوا التقديد إذ لا ضررا

صحفت أمك إذ (م) سمتك فى المهد أبانا

قد علمنا ما أرادت ... لم ترد إلا أتانا

صبرت بناء مكان التا (م) ء والله أعانا

فقد تلاعب الشاعر بالألفاظ ، فجمع بين لفظى (أبان، وأتان) فى جناس لاذع السخرية والتهكم.

١- راجع: الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٢٢، ٢٣ .

٢- د. أحمد الحوفى ، الفكاهة فى الأدب ج١/٥٠ .

٣- ديوان أبى نواس، ص٦٦٩، دار صادر – بيروت، "مجزوء الرمل".

ومن الطباق قول الفرزدق فى بنى كليب[١] :

لعـــن الإلـــه بنـــى كليـــب إنهـــم لا يغـــدرون ولا يفـــون لجـــار

فالفرزدق يسخر من بنى كليب، ويعيرهم بأمرين: **الأول**: "لا يغدرون" ولو اقتصر الشاعر عليها لاحتمل الكلام ضربا من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة.

والثاني: "ولا يفون " فهذا الأمر دال على أن عدم غدرهم، إنما هو عن عجز كما أن ترك الوفاء إنما هو للؤمهم.

وقد ضاعف الفرزدق من سخريته عند ذكره لكلمة "جار" ؛ لأن السخرية من ترك الوفاء للجار، أشد من السخرية من تركه لغيره.

٧ـ الرد بالمثل:

من أساليب السخرية الشائعة فى الشعر العربي: الرد بالمثل، أو مراعاة النظير فى الرد.

ومعناه: أن يوجد نوع من التناسب العام بين ما يقوله المتكلم وبين الرد عليه، وهو مثير للسخرية والضحك،"ومبعث الضحك فيه أن المتكلم الأول قصد إلى التندر أو الاستهزاء بالسامع، فإذا بالسامع يبغته برد أشد تندرا، وأكثر استهزاءا، وأدعى إلى الضحك، وهو فى رده حاضر البديهة، سريع الخاطر، ماهر فى مراعاة النظير، واختيار الرد المجانس للكلام الذى سمعه، وهذه المفاجأة البارعة فى الرد المجانس مثيرة للضحك" [٢] .

والرد بالمثل عادة ما يكون أكثر سخرية، وأشد لذعا، وادعى إلى الضحك[٣] .

ومما يذكر، أننا لو تأملنا فى شعرنا العربى قديمه وحديثه، لوجدنا أنه "يزخر بأساليب تعتبر من الرد بالمثل فى مضمونها العام، وإن اتسعت لوضعها ضمن طائفة أخرى من الأساليب" [٤] .

١- ديوان الفرزدق، ج١/٣٦٠، ت: كرم البستاني، دار صادر – بيروت، "الكامل التام".
٢- الفكاهة فى الأدب ، د. الحوفي، ج٢/٢ .
٣- راجع: السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٤١ .
٤- المصدر السابق /٤١ .

وقد يتداخل الرد بالمثل مع اللعب بالألفاظ، حيث يمثل كل منهما نوعا من المهارة العالية فى استخدام اللغة، وإن كانت هذه المهارة تعتبر جهدا ضائعا فى جانب اللعب بالألفاظ؛ لأنه حشد للألفاظ بطريقة لا تخدم غرضا معينا بقدر ما توحى بالرغبة فى العبث والمشاكسة.

أما جانب الرد بالمثل ، فإنه يوحى بالمشروعية، والمطابقة للموقف، ويعكس معنى العدل ويجسمه، ولذلك نجد ما يشبه الإجماع على قبول هذا اللون من الكلام كما نراه مقبولا أيضا فى العلاقات الإنسانية والدولية، ومنه مبدأ المعاملة بالمثل.

فالرد بالمثل كلاما أو عملا منبه قوى للإنسان لكى يلتزم جانب الصواب فى حياته القائمة على العلاقات المتبادلة ، التى تتطلب احترام حق الآخرين[1] .

ومن الأمثلة التى تذكر لهذا اللون، ما يذكر أن "ابن مناذر" طلب من "أبى حية النميرى" [2] أن ينشده بعضا من شعره، فأنشده قوله[3] :

ألا حى من أجل الحبيب المغانيا ... لبسن البلى مما لبسن اللياليا

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة ... تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

جفتك الليالى بعد ما كنت مرة ... سوى العصا لوكن يبقين باقيا

فقال ابن مناذر: أو شعر هذا؟ فأجابه ابن حية: ما فى شعرى عيب غير أنك تسمعه!

فقد أراد ابن مناذر أن يتهكم بهذا الشعر، فرد عليه الشاعر بأنه لا عيب فى شعره غير أنه سمعه.

وهذا الرد أشد تندرا، وأبلغ فى السخرية والإيلام.

١- راجع: السخرية فى أدب المازني، د.حامد الهوال/،٤٢ .

٢- هو الهيثم بن الربيع بن زرارة من بنى نمير بن عامر، وهو شاعر مجيد، فصيح راجز، من أهل البصرة وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، مات فى آخر خلافة المنصور سنة ١٥٨هـ .
ينظر فى الترجمة: تجريد الأغاني، لابن واصل الحموى، ت د. طه حسين، إبراهيم الإبيارى، ١٧٥٨/١/٢ دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان.

٣- زهر الآداب،لأبى إسحاق الحصرى القيروانى،ج٢٦٩/١،ط/المكتبة التجارية ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م، "البحر الطويل".

٨ـ التلاعب بالمعانى:

التلاعب بالمعانى أسلوب من أساليب السخرية، والتلاعب بالمعانى يكون مقصودا أحيانا، وفى أحيان أخرى يكون غير مقصود.

وقد أشار علماء البلاغة والنقد إلى أن هذا اللون يشمل ألوانا أخرى، كالكناية والتورية، والتعريض ، والإجابة بغير المطلوب، أو ما يسمى بالأسلوب الحكيم.

فأما الكناية: فهى التعبير بجملة أو بجمل يراد بها معنى آخر مرتبط بالمعنى الأصلي[١] .

وقد يكون التعبير عن الفكرة المرادة قائما على ألفاظ أو عبارات تؤدى بصورة مضحكة.

وذلك كالذى رد على صديقه حين سأله: كنت عند الأمير، فماذا ولاك؟ بقوله: ولانى قفاه.

وفى هذا التعبير سخرية من وجهين: سخرية من الأمير؛ انتقاما منه، لأنه رده دون شئ، وسخرية من النفس؛ للتعبير عن الحرمان والعودة خائبا.

وفى هذا من التنفيس عن ذات المتكلم ما يخفف عنه آلام الشعور بالحرمان والخيبة، وهو تعبير مضحك على كل حال[٢] .

وقد ينشأ الضحك والسخرية فى الكناية عما فيها من لباقة المتكلم وخداعه للسامع، بنوع من الغموض والإبهام.

ومما يمثل به لهذا الشأن: أن "العريان بن الهيثم" أتى بغلام سكران، فقال له: من أنت ؟ فقال[٣] :

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

فظنه ولدا لبعض الأشراف،فأمر بإطلاق سراحه، فلما تحروا عنه، عرفوا أنه ابن باقلانى[٤]

١- انظر:الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج٢/٣٣، والسخرية فى أدب المازني/٤٣ .

٢- راجع: المصدرين السابقين والصفحة.

٣- انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج٢/٤٤١، ٤٤٢، الطبعة الأولى١٩٩٢م دار الإمام على للطباعة والنشر، "البحر الطويل".

٤- الباقلاني: بائع الفول، والمراد هنا:الفول المدمس أو المطبوخ، وما يشبه الفول. (ينظر:لسان العرب١١/٦٢)

ووجه السخرية هنا: أن المتكلم أخفى كلامه بشئ من الغموض والإبهام حتى فهم منه السامع شيئا غير مراد، فكأنه المتكلم يسخر- بذلك – من غبائه وقلة فطنته.

وأما التورية: فمعناها: تعبير الكلمة عن فكرتين منفصلتين، إحداهما قريبة الخطور بالبال، لكنها غير مرادة، والأخرى بعيدة الخطور بالبال، لكنها هى المرادة[1].

ويعرفها آخرون بأنها: العبقرية التى تجعل شخصا من الأشخاص يستعمل ألفاظا تعنى شيئا ما بالنسبة إليه، وشيئا أخر بالنسبة للنظارة العارفين بالحقيقة.

وذلك كمن يقول لأعدائه مقدما لهم طعاما مسموما: طعاما هنيئها يا سادة[2]. والتعريفان يدوران حول معنى واحد، وإن كان الثانى يجعل استعمال هذا الأسلوب لونا من ألوان العبقرية.

- والتورية – بعد ذلك – تعد باعثا من بواعث الضحك، وذلك عندما يكتشف السامع خطأ فهمه الأول، ويقف على حقيقة الفهم الصحيح لمعنى الكلام.
- وأساس التورية – فى الأدب العربى – الاتحاد فى الحروف، والاختلاف فى المعنى والاتحاد فى الحروف قد يكون كاملا، وقد يكون فى أكثرها.
- والتورية – بعد ذلك – هى لون من ألوان التلاعب بالمعاني، وهى تستغل فى السخرية استغلالا ناجحا، ولا سيما إذا صدرت من عبقرى أريب يعرف أوجه الكلام وتصاريفه.
- ومن الأمثلة التى تذكر فى هذا المقام ، ما قاله أبو الحسن يحيى الجزار المصرى المتوفى سنة ١٣٦٧هـ[3] :

تـــزوج الـــشيخ أبـــى شـــيخة لـــيس لهـــا عقـــل ولا ذهـــن

١- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفى ، ج٢/٤٠ .

٢- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٤ * والسخرية فى الأدب العربي، د.نعمان طه/٤٢ .

٣- فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتبي، ت: د. إحسان عباس، ج٤/٢٧٧، دار صادر – بيروت ١٩٧٣م، "والأبيات من السريع التام".

لـــو بـــرزت صـــورها فـــى الـــدجى ... مـــا جـــسرت تنظرهـــا الجـــن

كأنهـــا فـــى فرشـــها رمـــة ... وشـــعرها مـــن حولهـــا قطـــن

وقائـــل قـــال لـــى : مـــا ســـنها ؟ ... فقلـــت: مـــا فـــى فمهـــا ســـن

ففى كلمة (سن)فى البيت الأخير تورية، ومعناها القريب غير المراد: أنها بمعنى واحدة الأسنان، ومعناها البعيد: العمر، وهذا المعنى هو المراد.

وهذه سخرية لاذعة، تسخر من ناحية اجتماعية معينة، حين يقوم بعض الناس بالزواج فى سن لا يسمح لهم بذلك.

والتورية هنا، تبعث على الضحك؛ نظرا لما بين الكلمتين من بعد بعيد فى المعنى.

وأما التعريض : فهو من أشهر أنواع السخرية وصورها فى أدبنا العربي ومن أكثرها انتشارا واستعمالا على الألسنة[1] .

والتعريض معناه: الكلام الذى لا يقصد به المتكلم معناه، وإنما يقصد معنى آخر وليس بين المعنيين تلازم كما فى الكناية ، أو دليل على المعنى القريب يخدع عن المعنى البعيد كما فى التورية[2] .

وهذا يدعونا إلى بيان الفرق بين التعريض ، والكناية، والتورية.

أما الفرق بينه وبين الكناية: فهو أن الكناية قائمة على التلازم والترابط بين المعنيين ، والتعريض لا تلازم فيه ولا ترابط، وإنما يفهم السامع المراد الخفى من تلقاء نفسه.

وأما الفرق بينه وبين التورية، فهو أن للكلمة الواحدة فى التورية معنى قريبا ترجحه قرينة فى الكلام ، ومعنى آخر بعيدا هو المراد، ولا قرينة عليه، بينما التعريض جملة ليس لها إلا معنى واحد ، يدركه السامع، فيفهم ما وراء الكلام من بواعث.

١- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د.نعمان طه/٣٩ .

٢- راجع: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج٢/٥١، والسخرية فى أدب المازني/٤٤ .

والإنسان الساخر يلجأ إلى أسلوب التعريض، حين يكون المهجو (المسخور منه) ذا مكانة اجتماعية، ونفس حساسة، يكفيه التلميح، ويوقظه التعريض، أو إذا كان قريبا ذا آصرة تحرم التصريح، ورابطة لا تحل الكشف، فهنا يلجأ... إلى التعريض ليكون بمثابة التحذير المبدئي، والإنذار المبكر.

والتعريض أسلوب مؤلم، وإن لم يكشف عن المعنى ويظهر الدلالة، لأن فى الإظهار تحديدا للمراد، وقصرا للغاية، وفى الإطلاق اتساعا للخيال، وسعة فى التحليق والظن[1].

ومما يمثل به للتعريض هنا: أن رجلا من "محارب" دخل على "عبد الله بن يزيد الهلالي"، وهو والى أرمينية، وبالقرب منه غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله ابن يزيد: ما تركتنا شيوخ محارب ننام الليلة: فقال له المحاربي: أصلح الله الأمير أتدرى لم ذلك؟ قال: ولم ؟ قال: لأنها فقدت برقعا لها.

قال عبد الله : قبحك الله، وقبح ما جئت به.

أراد عبد الله بن يزيد الهلالى قول الأخطل[2] فى محارب[3] :

تنق بلا شيء شيوخ محارب ... وما خلتها كانت تريش ولا تبرى[4]

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت ... فدل عليها صوتها حية البحر

وأراد المحاربى قول الشاعر[5] :

لكل هلالى من اللؤم برقع ... ولابن يزيد برقع وقميص

١- راجع: الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/٣١٧، ٣١٩ .

٢- هو أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة التغلبى ، نشأ على النصرانية، وكان سليط اللسان، توفى سنة ٩٠هـ الموافق ٧٠٨م . (ينظر فى الترجمة: الأغاني، للأصفهاني، ج٨/٢٩٠).

٣- ديوان الأخطل، شرح وتقديم أ/مهدى محمد ناصر الدين/١١٣، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٩٨٦م.

٤- تنق: تصدر أصواتا كأصوات الضفادع، كناية عن القبح، ولا تريش ولا تبرى: استعارة معناها: أنها لا تقدم فى الحرب ولا تؤخر .

٥- العقد الفريد، ج٢/٤٤٤ ، "الطويل".

فقد أراد كلا الرجلين أن يسخر من صاحبه، واختار لذلك أسلوب التعريض لما فيه من خفاء وستر، ولكونه أشد إيلاما ، وأوسع مجالا للخيال، وسوء الظن٠

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن اللعب بالمعانى – باعتباره أسلوبا من أساليب السخرية – بألوانه الثلاثة "الكناية ، والتورية ، والتعريض" وبغيرها مما لم نجد داعيا للحديث عنها "قرين لأسلوب الرمز الذى يشترك مع هذه الألوان فى أن المعنى المراد عادة يكون بعيدا ، وإن كان فى أسلوب اللعب بالمعانى متضمنا من اللفظ مالا يصعب فهمه وإن اختلط بغيره، فى حين أنه فى الرمز موح به، تقصده العبارة ، وإن لم تتحدث عنه٠

والرمز قرين اللعب بالمعانى أيضا فى أن كلا منهما يستخدم لحماية صاحبه من الوقوع تحت دائرة الإحباط إن كان هناك، وإن كان الرمز أوسع مدى وأرحب ساحة" [١] .

وهذا يعنى أن اللعب بالمعانى أسلوب من أساليب السخرية، لا يتقنه إلا من أوتى حظا من العبقرية والنبوغ، والموهبة الفنية العالية٠

٩- المبالغة والتزيد:

المبالغة والتزيد فى القول لون من ألوان السخرية، وقد عرف ذلك منذ زمن بعيد، فقد كان من شأن العرب أن تبالغ فى الوصف والذم، كما من شأنها أن تختصر وتوجز، وذلك لتوسعها فى الكلام واقتدارها عليه٠

والمبالغة نوعان: مبالغة فى اللفظ،وهى التأكيد كقولنا: رأيت زيدا نفسه ومبالغة فى المعنى- وهى ما نقصد إليه هنا- وهى إخراج القول على أبلغ غايات معانيه[٢]. وبذلك يبلغ الذروة فى الوصف أو الذم على حد سواء٠

١- السخرية فى أدب المازني، د٠ حامد الهوال/٤٥ ٠

٢- راجع: نقد النثر، قدامه بن جعفر، حققه وعلق حواشيه: د٠طه حسين، وعبد الحميد العبادي/٧٠، ٧١، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية – القاهرة ١٩٣٩م٠

وشى طبعى أن يستغل الشاعر الهجاء أو الساخر المعطيات التى أمامه من الواقع ويبنى عليها فنه، ويبالغ ويتزيد بما يناسب السخرية والإضحاك، إذ الإسراف فى كل شئ يضحك ولو كان فى الفضائل، ثم إنه مرتبط بالحالة التى يعبر عنها الشاعر وحالته النفسية.

فمبالغة الشاعر فى السخرية والإضحاك، قد تكون علاجا للشخص المسخور منه وإلا لبدا الشاعر الساخر ضعيفا لا يشفى صدرا، واهنا لا يحقق غاية[1]- فالمبالغة - من خلال ما تقدم – هي: أسلوب من أساليب الفكاهة والسخرية التى تستخدم كثيرا فى التنكيت، وهى تعتمد على الإفراط فى الوصف، وتجسيم الصورة أو العيب المقصود[2] .

ولعل من أوضح ما يمثل به فى هذا المقام قول امرأة "قتادة بن مغرب اليشكرى" تهجوه وتسخر منه[3] :

حلفت فلم أكذب وإلا فكل ما ... ملكت لبيت الله أهديه حافية

لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها ... مخافة فيه إن فيه لداهية

فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب ... قتادة إلا ريح مسك وغالية

فكيف اصطبارى يا قتادة بعدما ... شممت الذى من فيك أثأى صماخيه

فامرأة قتادة بن مغرب اليشكرى تبالغ وتتزايد فى هجاء زوجها والسخرية منه فقد أرادت أن تصور رائحة فمه الكريهة المنتنة ، فادعت أن المنايا لو برزت لها، لاختارت أن ترمى بنفسها فيها على أن تعيش مع زوجها؛ خوفا من بخر فمه؛ لأن هذا البخر كالداهية.

وفى الموت تتجمع كل الصفات الكريهة ، ولما كانت هذه المرأة مدركة أنها تبالغ فقد صدرت البيت بـ"لو" التى تخفف من غلواء المبالغة، وتقلل من حدة التزيد.

١- راجع: الهجاء الجاهلي، د.عباس عجلان/٣١٣ .

٢- راجع: السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٤٩، والسخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٤١ .

٣- ديوان الحماسة، لأبى تمام الطائي، ج٢/٢١٩، مكتبة الكليات الأزهرية، "الطويل".

ثم إنها عادت إلى المبالغة مرة أخرى، عندما زعمت أن رائحة جيفة الخنزير – على شدة نتنها – ما هى إلا كرائحة المسك والغالية بالنسبة إلى رائحة بخر قتادة لشدة نتنه، وهذه مبالغة شديدة ومؤلمة جاءت عن طريق المقارنة والمقارنة "نمط من أنماط التعبير المؤلم النافذ لما يتضمن من المقارنة والتفضيل، وبضدها تتميز الأشياء"[١].

ومن الأمثلة – أيضا – ما جاء فى قول أعرابى فى عجوز تزوجها[٢] :

'هـا جـسم برغـوث وسـاقا بعوضـة	ووجـه كوجـه القـرد بـل هـو أقـبح
تـبرق عينيهـا إذا مـا رأيتهـا	وتعـبس فـى وجـه الـضجيع وتكلـح[٣]
لهـا مـضحك كـالحش تحـسب أنهـا	إذا ضـحكت فـى أوجـه القـوم تـسلح[٤]
وتفـتح – لا كانـت – فمـا لـو رأيتـه	توهمتـه بابـا مـن النـار يفتـح
إذا عـاين الـشيطان صـورة وجههـا	تعـوذ منهـا حـين يمـسى ويـصبح

فقد حاول الشاعر فى هذا النص أن يستجمع لهذه المرأة كل صفات القبح والدمامة، مبالغا فى ذلك ما وسعته المبالغة والتزيد.

وفى ذلك سخرية مرة موجعة، تعصف بهذه المرأة عصفا، وتصيبها فى مقتل.

١٠- التصوير الساخر الكاريكاتيري:

التصوير الساخر أسلوب من أساليب السخرية الناجحة، التى يستخدمها الإنسان الساخر ليضع الشخص المسخور منه فى صورة مضحكة أمام الآخرين

وهذا يأتى عن طريق التحريف فى الملامح المميزة لشخص معين، والمبالغة فيها بطريقة تؤدى إلى حدوث أثر مضحك لدى المتلقي[٥].

١- الهجاء الجاهلي، د.عباس عجلان/٣١٧ .

٢- انظر: المستطرف فى كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد الأبشيهى، شرح: د. مفيد محمد قميحة، ج٢٦١/١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٩٩٣م، "الطويل".

٣- تكلح: تعبس ويزيد عبوسها.

٤- الحش: الدبر والمخرج، ومكان قضاء الحاجة، والسلاح: كل ما يخرج من البطن من الفضلات.

٥- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٣٧٠ .

وقد حاول بعض النقاد تعريفه، فقالوا: إنه نوع من النقد، يعتمد فى جملته على التماس العيوب الرئيسية لظاهرة معينة يعرضها بأسلوب فني، ويبالغ فى تصوير العيب أو النقص ، ويبرز وجه التناقض على شكل نكتة ترد فى ذهن الفنان[1].

ويذكر الدكتور شاكر عبد الحميد: أن التصوير الكاريكاتيرى "نوع من الحط من قدر الشخصية ، بالتركيز على صفة من صفاتها، أو ملمح من ملاحها كان يمر من دون أن يتوقف عنده أحد؛ لأنه كان منظورا عليه حينئذ فى الإطار الكلى للصورة العامة، وحين يلتفت إلى هذا الملمح وحده من دون سواه، يقع التأثير المقصود، وهو الضحك الذى يمتد حينئذ من الجزء إلى الكل، أو إلى الشخص نفسه فإن لم يكن الشخص بالفعل يشتمل على ذلك الملمح، فإن الكاريكاتير حينئذ يعمد إلى خلق ذلك خلقا، بأن يتجه إلى عنصر ما فى الشخصية ليس مضحكا فى ذاته فيبالغ فى تصويره"[2]، وبذلك يستفز المتلقي وينتزع منه الضحك انتزعا.

وقد تحدث الأستاذ الدكتور/شوقى ضيف عن التصوير الساخر، وأراد حصره فى نطاق الرسم بالألوان، والخطوط، والظلال، والأضواء، والنحت فقط، وذلك حين يقول:"وهناك ضرب من الفكاهة– ومنها السخرية – لا يعتمد على كلمات، ولا على حروف وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء وقد شاع فى القرنين الأخيرين بأوربا ونقلناه عنها، وكان لنا منه حظ فى عصورنا القديمة ونقصد التصوير الساخر "الكاريكاتوري"[3]والحق أن التصوير الساخر، يتسع مجاله وتتسع طرق التعبير عنه، حتى لتشمل الكتابة بالحروف وبالكلمات، وبالخطوط والألوان، وبالظلال والأضواء.

١- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، قحطان التميمى/٣٦٠، دار المسيرة – بيروت.
٢- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٣٧٤ .
٣- الفكاهة فى مصر/١٤، ١٥ .

obeikandl.com

والشاعر – فى الأصل – فنان ذو خيال واسع، ومصور عبقري، فهو "يعرف كيف يجسم الصورة، وكيف يركبها، وكيف يحشد جزئياتها وعناصرها، فإذا هى تتحول إلى لوحة كبيرة، كهذه اللوحات التى نراها فى معارض الرسامين ، فلا نستطيع أن نخفى إعجابنا بها، ولا سرورنا فى أثناء رؤيتها" (١) .

وهو يعرف – أيضا – كيف يسلط الضوء على العيب أو النقص ، ويبالغ فى تضخيمه بصورة تلفت الأنظار إليه "وهذه المبالغة فى تضخيم الصورة وتشويهها لا تتعارض مع الصدق الفنى لدى الشاعر: لأن الهجاء الكاريكاتيرى فن هادف ذو موضوع كبير الأهمية فى نفس الشاعر، ولذلك فإن الشاعر – مدفوعا بهذه الأهمية – يعمد إلى هذا الأسلوب المضحك، فالضحك تأديب قبل كل شئ، وقد وجد ليخزى، فلا بد أن يشعر موضوعه بشعور مؤلم" (٢) .

ذلك لأن الساخر "يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أوفى وجهه ويكبرها كأنما يريد أن ينمى الضعف أو العيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز فرصة مثل تقويس حاجب، أو انحناء أنف، أو تجعيد جبهة، أو انتفاخ خد، أو طول ذقن، أو ضيق عين ويكبر ذلك مشوها ومستغلا للطبيعة والخلقة، وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، وفى الوقت نفسه تصبح مضحكة، لما أظهره الرسام من تنافر فى أوضاع الجسد أو الوجه" (٣).

ولعل ابن الرومى يقف على القمة فى هذا الفن، حيث إنه قد أوتى أسباب التفوق فى الإفادة من اللحظة الحاسمة الدقيقة فى التقاط الصورة الساخرة التى تفوق الأصل المصور فى قوة التعبير والأداء.

١- شوقى شاعر العصر الحديث، د. شوقى ضيف/٤١، ط/دار المعارف ١٩٩٥م.
٢- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجري، قحطان التميمى/٣٦٠ .
٣- الفكاهة فى مصر،/ د.شوقى ضيف/١٥ .

ومن ذلك قوله فى عمرو النصرانى راسما له هذه الصورة الساخرة[1] :

يـا عمـرو فخـرا فقـد أعطيـت منزلـة ... ليـست لقـس ولا كـانت لـشماس

للنـاس فيـل إمـام النـاس مالكـه ... وأنـت يـا عمـرو فيـل الله لا النـاس

ليـك خرطـوم صـدق لا فجعـت بـه ... فإنـه آلـة للجـود والبـاس

لـو شـئت كـسبا بـه صـادفت مكتـسبا ... أوانتصارا مـضى كالـسيف والفـاس

مـن ذا يقـوم لخرطـوم حييـت بـه ... إذا ضـربت بـه قـرنا علـى الـراس

أو مـن يـراه فـلا يعطيـك خلعتـه ... لا تكـذبن فمـا بالـصدق مـن بـاس

حملـت أنفـا يـراه النـاس كلهـم ... مـن رأس ميـل عـيانا لا بمقيـاس

فالناظر فى هذه الأبيات لأول وهلة ، يتوهم أن ابن الرومى يمدح عمرا هذا ويعلى من قدره، حيث يرفعه على قس بن ساعدة الإيادي، وعلى شماس ممدوح الحطيئة، ولكنه يفاجأ بأمر مضحك، وهو أن ابن الرومى يسخر من عمرو هذا سخرية مرة ولاذعة ، حيث يصوره بصورة فيل ضخم كأكبر ما يكون فيل، ويصف خرطومه بأنه كبير مخيف يرهب الآخرين ، فيجودون له اتقاء غضبه وثورته.

وقد بلغ ابن الرومى ذروة السخرية عند قوله: "لا فجعت به" وكأن هذا الخرطوم شى غال وعزيز، والشاعر يدعو له – متهكما – بطول البقاء والسلامة، فهذا الأنف- الخرطوم – مصدر عطاء، ومظهر قوة، وهو لضخامته وكبره فإن الناس يبصرونه من بعد بعيد.

وهكذا ينقل ابن الرومى لنا الأشكال والهيئات بصورة فريدة ومتميزة كمنا يطبع المصور ما يراه من أشكال وهيئات .

١- ديوان ابن الرومي، مختارات كيلاني، ج٢/٢٤٠، المطبعة التوفيقية، "البسيط التام".

١١ـ السخرية عن طريق التهكم:

التهكم أسلوب ناجح من أساليب السخرية، وهو يعد من أعمق أساليبها٠

والتهكم : طريقة تبدى ما يقصده الإنسان لا بطريقة مباشرة، ولكن من خلال طريقة خاصة فى النظر إلى الأشياء والشعور بها، والتعبير عنها، طريقة تجمع بين الجد والهزل، مما قد يجعل الابتسامة تتسع على شفاة السامعين أو القراء، ثم تتسع هذه الابتسامة تدريجيا، شيئا فشيئا، حتى تتحول إلى ضحك[١] .

ويذكر الدكتور نعمان طه أن التهكم هو: ذكر أشياء أو أباطيل لا يعتقد بها الشخص، وفى نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة، أو يذكرها فى معرض التعجب من وجودها، ومن ثم الاستهزاء بها٠

وعلى كل، فالتهكم من صور السخرية الشفافة التى ليس من السهل تعريفها ولكنها تعرف بالذهن اللماح[٢] .

ويعد التهكم "وسيلة لتهذيب الفرد والمجتمع ، والسعى بهما إلى مستوى أكثر تقدما، وأرقى حضارة ؛ لأن الأديب حين يتهكم ، فإنه يربط ما بين الأشياء والأمور الواقعة وما يجب أن تكون عليه من مثل الكمال، أى أنه يقابل الواقع على ما فيه من تخلف أو فساد أو نقص بالكمال الذى يراه الهدف والغاية" [٣] .

هذا، ومن الأمور الملحوظة فى أسلوب التهكم "أنه لا يمكن إعطاء أمثلة حقيقية لمثل هذا النوع بجملة مبتورة؛ نظرا لأن الكلمة أو الجملة تفقد حيويتها إذا انتزعت من الكل الحى النابض بالحياة، كالعضو الذى يموت إذا اقتطع من الجسم كله" [٤].

١- راجع: الفكاهة والضحك، د٠ شاكر عبد الحميد/٤٧

٢- راجع: السخرية فى الأدب العربي/٤٤ ٠

٣- الفكاهة فى الأدب ، د٠ الحوفي، ج١/٧٣ بتصرف يسير٠

٤- السخرية فى الأدب العربي، د٠نعمان طه/٣٩ ٠

ومما يمثل به لهذا اللون من السخرية، قول أعرابى فى "سعيد بن سلم الباهلى" وقد استبطأ ثوابه بعد أن مدحه[١]:

لكل أخى مدح ثواب يعده ... وليس لمدح الباهلى ثواب

مدحت سعيدا والمديح مهزة ... فكان كصفوان عليه تراب[٢]

فالبخل والشح رذيلة فى المجتمعات الفاضلة، لذا كان البخلاء والأشحاء مبغضين إلى الناس، وكانوا أهدافا لسهام الأدباء ، ومثارا للتهكم والتندر عليهم فى كل العصور.

وفى البيتين السابقين، يتهكم هذا الأعرابى ويسخر من بخل سعيد بن سلم الباهلي، ويبلغ هذا التهكم ذروته وغايته عندما يصفه بقوله: فكان كصفوان عليه تراب مما يعطى إشارة ودلالة بأنه لا يرجى منه نوال أو عطاء، كما أنه يرميه بالإهمال وقلة الشأن، فهو كالحجر الملقى الذى تتجمع عليه الأتربة ، ولا يأبه به أحد.

وهكذا يمثل التهكم لونا عميقا من ألوان السخرية ، له خطره ودلالته. هذه أهم وأشهر أساليب السخرية الشائعة على ألسنة الأدباء والحكماء، وهذا لا يعنى أن هذه الصور هى كل صور السخرية، فما زالت هناك صور أخرى كثيرة اكتفينا بما ذكرناه هنا عنهاكسخرية القدر[٣]،والسخرية المغرضة[٤]وغيرهما.

السخرية فى القرآن الكريم:

عندما نتحدث عن السخرية فى الأدب، يتطرق إلى أذهاننا أمر لا مناص من الحديث عنه، وهو الحديث عن السخرية من وجهة النظر الدينية، خاصة وأن القرآن الكريم قد نهى عنها، ووجه المؤمنين توجيها مباشرا إلى عدم سخرية بعضهم من بعض، وقد جاء ذلك فى قول اللّه – تعالى :-

---

١- انظر: العقد الفريد، ج٥٠٧/٣ ، "البحر الطويل".

٢- مهزة : داعية إلى العطاء. والصفوان: الحجر الصلد الأملس لا ينبت شيئا .

٣- سخرية القدر أو السخرية بالمفارقة: هى ما تأتى النتائج فيها على غير ما تقتضيه المقدمات، ولعل هذا المفهوم يتردد بكثرة فى لغتنا العربية عندما نقول: تقدرون فتضحك الأقدار.

٤- والسخرية المغرضة: هى ما تستخف بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية. ولحسن الحظ أن هذه الظاهرة ما هى إلا استثناء من القاعدة العامة التى تؤكد أن السخرية الراقية على مر العصور لم تنفصل عن أهدافها الأخلاقية.

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ " (١).

وقد أثارت هذه الآية الكريمة جدلا طويلا بين العلماء ، حيث أنكر بعضهم نسبة فعل السخرية إلى الله، إذ كيف ينهى عن أمر ويفعله هو.

وحاولوا – على هذا الأساس – تأويل الآيات ، فقالوا: إن قول الله – تعالى-:

"إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ..." (٢)

قالوا: إن استهزاء الله بهم: عقاب ما، ثم حاولوا تأويل هذا العقاب.

ولعل الدافع إلى هذا القول أمران:

الأول: تنزيه الله عن السخرية؛ لأنها – فى نظرهم – مرادفة للعب والعبث، وهما منتفيان عن الله عزوجل بالإجماع(٣).

الثاني: الاستدلال بآية الحجرات التى ورد فيها النهى عن السخرية(٤)

وقد رد على الأمر الأول – الذى ينزه الله تعالى عن نسبة فعل السخرية والاستهزاء والمكر والخداع إليه، بأن قوله – تعالى- : "ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ...."

إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله سخرية ولا استهزاء وأن هؤلاء نافون عن الله- عزوجل- ما قد أثبته لنفسه، وأوجبه لها؛

لأن السخرية والاستهزاء والمكر والخداع، إذا كانت على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة، فلا يمتنع ذلك عن الله.

ويؤيده ما روى عن ابن عباس (رضى الله عنه) فى قوله – تعالى- : "ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ...."

قال: يسخر منهم للنقمة منهم(٥) .

١- سورة الحجرات من الآية:١١ .
٢- سورة البقرة، من الآيتين: ١٤، ١٥ .
٣- راجع: تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ج٥٢/١، الطبعة الأولى، دار الغد العربى ١٩٩١م.
٤- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج١٥٧٧/٩، طبعة دار الشعب.
٥- ابن كثير، ج٥٢/١ .

"وإذا كان التهديد بالاستهزاء من جانب الله – سبحانه وتعالى- ذى القوة الجبارة التى لا يمكن أن يتصورها بشر، فلا شك فى أن عقلهم الباطن سوف تختلط به الصور، وسوف تلح عليه فى التهويل والمبالغة فى التصوير حتى تفزعه"[١] .

أما من ناحية قول المفسرين، إن الله – عزوجل – نهى عن السخرية واستدلالهم على ذلك بآية الحجرات السالفة الذكر.

فقد رد بعض النقاد على ذلك بأن "السخرية المقصودة هى ذات الطابع الجماعى الذى يهدم المجتمع الإسلامي، ويزعزع وحدته، وهى السخرية التى تسيطر عليها دوافع خبيثة بهدف الإساءة إلى الغير، وهى عادة تكون محملة بالحقد والكراهية" [٢].

وذلك كعدوان الكفر على الإيمان، والشر على الخير الوارد فى بعض آيات القرآن الكريم[٣] .

أما سخرية أهل الإيمان من الكافرين، وسخرية أهل الحق من أهل الباطل فلا تدخل ضمن السخرية التى نهى الله – تعالى – عنها؛ "لأنها رد على الباطل بالحق، ولأنها شريفة الباعث وهادفة، وكانت نوعا من التوعد للساخرين من أجل الباطل" [٤].

فالسخرية القرآنية تهدف إلى غايات مشروعة، وأسباب معقولة، فهى فى الاستخدام القرآنى جاءت لأغراض الجزاء، أو الدفاع، أو التقويم" [٥] .

ولا يخفى أنه لا يوجد وجه للمقارنة هنا بين هاتين السخريتين: سخرية هدامة حاقدة تافهة، وأخرى بناءة خيرة، تدافع عن الحق والخير، وتنشد المثل العليا.

١- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٧٥ بتصرف يسير.
٢- د. حامد الهوال السخرية فى أدب المازني/ ٧، ٨ .
٣- كقوله تعالى: "زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا..." البقرة: ٢١٢ وقوله: "الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم..."التوبة: ٧٩ - وقوله:"ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه... الخ" . هود :٣٨، ٣٩ - وقوله: "بل عجبت ويسخرون. وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون"الصافات:١٢، ١٣، ١٤ .
٤- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٩ .
٥- راجع:النقد الساخر فى أدب المعري،إعداد:عدنان عبيد العلي/٥،(رسالة دكتوراه باللغة العربية بالقاهرة١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

لأجل ذلك، فنحن "لا نعتبر السخرية – على عمومها – تقع فى دائرة التحريم وإلا لما أسندها الله تعالى إلى ذاته فى الآيات الكريمة، بل إن إسنادها إلى ذاته يعطى الإباحة على إطلاقها فى إطار الخدمة العامة، والتوجيه، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر" [١] .

هذا، وتمتاز السخرية القرآنية بأمور منها: براعة التصوير، والإيجاز والتسامي والدعوة إلى التفكير[٢].

وقد ترتب على ذلك أن انتقل الهجاء العربى فى الشعر من التهكم الساذج والتنابز الطفولى الذى كان منصبا على العيوب الجسمانية،أو الفقر،أو الاستضعاف الاجتماعى والطبقي، إلى السخرية العقدية، والفكرية، والأخلاقية[٣] .

هذا حديث عاجل عن السخرية الواردة فى بعض آيات القرآن الكريم، أما السخرية الأدبية، التى هو موضوع هذه الدراسة "فهى أسلوب نقدى له ميزاته الفنية ويعتبر فى واقعه بناء للحياة، وحارسا للمثل العليا" [٤].

ومع ذلك، فقد يتعمد أسلوب السخرية أحيانا "أن يوقع بعض الأشخاص أو الجماعات، أو بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية فى حرج مقصود؛ ليدفع بذلك حرجا أكبر عن الجماهير، ويرد خطرا قائما على المجتمع أو متوقعا، مما يعتبر عملا إنسانيا شريفا وساميا" [٥] .

فهى إذن "سخرية بناءة،تصلح وتستل العيوب ، وتأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم"[٦]

وبذلك كله نستطيع أن نجهر بأن السخرية الأدبية – بهذا المفهوم – تختلف عن السخرية التى نهى القرآن الكريم عنها.

١- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/١١ .

٢- راجع:أسلوب السخرية فى القرآن الكريم، د.عبد الحليم حفنى/١٠١وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

٣- انظر: النقد الساخر فى أدب المعرى، إعداد: عدنان عبيد العلى/٦ .

٤- السخرية فى أدب المازني/٨ .

٥- المصدر السابق/٨ بتصرف.

٦- السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٨٢ .